القضايا الاجتماعية والسياسية في "ثلاثية غرناطة" لرضوى عاشور

بحث جامعي

لنيل الشهادة ما قبل الدكتوراة

إعـــداد و تقـديـم

محمد أرشد علي

تحت إشـــراف

الدكتور/ محمد قطب الدين

مركز الدراسات العربية والإفريقية
كلية دراسات اللغة والأدب والثقافة
جامعة جواهرلال نهرو- نيودلهي-67
2016

مركز الدراسات العربية والإفريقية
Centre of Arabic and African Studies
School of Language, Literature and Culture Studies
Jawaharlal Nehru University, New Delhi - 110067
जवाहरलाल नेहरू विश्वविद्यालय, नई दिल्ली-110067
Gram: JAYENU Tel : 26704253 Fax : 91-11-2671 7525

25 July 2016

DECLARATION

I declare that the dissertation entitled **"SOCIAL AND POLITICAL ISSUES IN GRANADA TRILOGY BY RADWA ASHOUR"** submitted by me is in the partial fulfillment of the requirement of the award of the degree of Master of Philosophy of the University. This dissertation is my original research work and has not been submitted for any other degree of this University or of any other university/ institution.

Md Arshad Ali

Md. Arshad Ali

(Research Scholar)

CERTIFICATE

We recommend that this dissertation be placed before the examiners for valuation.

Dr. Md. Qutbuddin

(Supervisor)

CAAS/ SLL&CS/ JNU

Centre of Arabic & African Studies
SLL & CS
Jawaharlal Nehru University

25/7/2016

Prof. Rizwanur Rahman

(Chairperson)

CAAS/ SLL&CS/ JNU

Chairperson
Centre of Arabic and African Studies
SLL&CS, Annex Building
Jawaharlal Nehru University
New Delhi -110067

Scanned by CamScanner

المقدمة

عرف الأدب العربي الفن السردي القصصي منذ أقدم العصور كما نلمس ملامحه في "كليلة ودمنة" و"ألف ليلة وليلة" و"المقامات" و"رسالة الغفران" و"حي بن يقظان" وغيرها من الكتب ولكنه بمعناه الصحيح الأدبي الفني نشأ وترعرع منذ بدء الاحتكاك الثقافي مع الغرب حتى تنوعت ألوانه وأشكاله وتعددت فنونه ومجالاته ومنها الرواية والقصة والقصة القصيرة والمسرحية وما إلى ذلك.

أماالرواية التي تعد أكبر أنواع السرد وأرسخ أشكاله التعبيرية الأدبية في تنوع مواقفها ومساحتها الزمانية ظهرت في العالم العربي في أواخر القرن التاسع عشر في شكل الاختصار والترجمة للروايات الغربية ويعتبر الباحثون كتاب " تخليص الإبريز في تلخيص باريز" البذرة الأولى للرواية في الأدب العربي الحديث، مع أن الكتاب جاء مزيجا من خصائص كتب الرحلات والكتب العلمية خاليا من العنصر الروائي، ثم ظهر كتاب "علم الدين" لفرح أنطون و "حديث عيسى بن هشام" للمويلحي و "ليالى سطيح" لحافظ إبراهيم، محاولة لإحياء التراث السردي العربي القديم، ولكن أول رواية فنية ظهرت عام 1913م وهي "زينب" لمحمد حسين هيكل، ثم بلغت الرواية إلى أوج النضج والكمال على يد ثلة من الأدباء والروائيين الكبار نخص بذكر منهم نجيب محفوظ والمازني وطه حسين وهيكل والشرقاوي وتوفيق الحكيم ومحمود تيمور وصالح مرسي ويوسف إدريس وأمثالهم كثيرون.

شاهدت الرواية العربية في مسيرتها كثيرا من النزعات والإتجاهات والحركات والتحولات الأدبية والفنية والأسلوبية وجربت الألوان والأشكال، ومن تلك الألوان والأشكال والتحولات الأدبية والفنية لون التاريخية الواقعية الذي يقدم الحقائق التاريخية في شكل أدبي

فني بشيئ من الفرق الأساسي هو أن التاريخ وثائق تصور الزمن وأحداثه لمجتمع من دون تدخل من المؤرخ، وأما الروية فهي تستخدم التاريخ وتستلهم المادة من أحداثه بشكل فني لا بشكل حرفي لمعالجة قضية حية من قضايا المجتمع أو لتمجيد حدث معين كان له في الماضي وأحدث فرقا في حياة الأمة، وبرز عديد من الروائيين العرب في كتابة مثل هذه الرواية نخص بذكر منهم الاديب العملاق نجيب محفوظ وعلي الجارم ومحمد لطفي جمعة ويوسف السباعي وأمثالهم كثيرون.

انضم إلى هؤلاء الروائيين والروائيات إسم الروائية القاصة الناقدة رضوى عاشور في العهد الأخير من القرن العشرين لم يكن قلمها قلما عاديا يسطر بعض الأحرف والكلمات بشكل منمق باحثا عن جماليات اللغة وباعثا على تسلية الوقت، بل إنها كانت تحمل قضية أمة وهم الشعب وكانت تترسم خطى حضارتنا خلفناها وراء ظهورنا وجهلناها، وكانت تحرص على بعثها من الماضي لنعي ماضينا ونرسم مستقبلنا. ماقرأت رضوى عاشور التاريخ في الجامعة ولكن التاريخ ظل أقرب إليها في كل مرحلة من مراحل الدرس والتدريس والقراءة والكتابة، إن معظم أعمالها تدور حول التاريخ كـ " ثلاثية غرنطه" و "الطنطورية" و "حجر دافئ" وغير ذلك . ومن هنا تقول خلود إبراهيم في كتابها "تطور البناء الدرامي التاريخي في روايات رضوى عاشور "هذا دليل واضح على أن التاريخ وكتابته عليها وعلى توازنها النفي... فكتابة التاريخ بالنسبة للكاتبة كان تفريغا وتعبيرا عن مشاعرها ووجهات نظر مكتوبة لايمكن تفريغها وتقديمها بطريقة تليق بعظيم الحدث وبيان تأثيره على الواقع إلا بالكتابة، وذلك لتوضيح الرؤى عبرها إلى عدد كبير ممكن من جهود القراء". [1] ومن بين

[1] . خلود إبراهيم: تطور البناء الدرامي التاريخي في روايات رضوى عاشور ص54

أعمال رضوى عاشور احتلت رواية "ثلاثية غرناطة" مكانة مرموقة و سمعة كبيرة وشهرة فائقة بين الكتاب الباحثين والدارسين والقراء.

إن هذه الرواية تتألف من ثلاث روايات وهي غرناطة ومريمة والرحيل وظهرت في خمسمائة صفحة من الحجم المتوسط عام 1998م من دار الشروق وهي الرواية لا تروي عن قصة حب بين شباب وفتاة على أعتاب غرناطة بل تحكي عن حب الشغف لغرناطة والأندلس وتحكي عن قصة الجنة المفقودة ضاعها سلفنا بيدي القشتاليين بقصورها و مساجدها وحماماتها وأنهارها وشوارعها ونخيلها وحدائقها. فغدت ساكنة صامتة لا حراك فيها ولارواح ولا بشر ولا دواب ولا طيور وأبوابها مغلقة كأبواب الطيور، وهي تحكي عن التاريخ الذي خلفناه ونسيناه قام فيه شعب البيازين المسلم المظلومين للحفاظ على الهوية الإسلامية والثقافة العربية، صلوا وصاموا واعتكفوا وأقاموا الصلاة وطبخوا الكعك في آخر الليل وتزوجوا على الطريقة الإسلامية وجاهدوا للصيانة على لغتهم وكتبهم الدينية والعربية خلال إخفاءها في الكهوف والصندوق وتحت الأرض والبيوت والأطلال المهجورة، أنهم واجهوا في سبيل ذلك كثيرا من الصعوبات والعراقيل والاضطهادات ولكنهم لم يتخيلوا عن ذروة التوحيد وعن حب الرسول صلى الله عليه وسلم رغم تنصيرهم. ماهي إلا رحلة الحزن والأسى ورحلة القنوط واليأس ورحلة الألم والاضطهاد ورحلة التعذيب والتنكيل التي تبتدأ من عام 1491م أى العام الذي سقطت فيه غرنط ة بإعلان المعاهدة التي تنازل بموجبها أبو عبدالله محمد الصغير آخر ملوك غرناطة عن ملكه لملكي قشتالة وأراغون وتنتهي إلى عام 1609م بإعلان الحكم العام بترحيل المسلمين من الأندلس وإبعادهم منها تماما مرورا بكثير من الويلات والنكبات والنكسات والحصار السياسي والاجتماعي والديني والثقافي من خلال أجيال متعاقبة ومن خلال هذه المرحلة والطويلة جرت قرابة قرنا وعشرين عاما، نستطيع أن

نرى من خلالها كثيرا من القضايا الاجتماعية والسياسية والجوانب الإنسانية المتعددة التي عاشها الأندلسيون العرب بعد سقوط أوطانهم كما نرى بين صفحات الرواية نماذج رائعة ومثالا حيا للغة والأدب والفن والأسلوب الذي لانجده عند الأدباء الآخرين.

فنظرا إلى أهمية الرواية المرموقة ومكانتها العالية التاريخية والأدبية والفنية لقد اخترت هذا الموضوع " القضايا الاجتماعية والسياسية في "ثلاثية غرناطة" لرضوى عاشور لنعمق فى تلك القضايا الإجتماعية التي تناولتها رضوى عاشور وماهو الأسلوب الفني والأدبي الذي مارسته في هذه الرواية الرائعة القيمة.

وتسهيلا للأمر قد قسمت هذا البحث إلى ثلاثة أبواب وكل باب ينقسم إلى عديد من الفصول وهي كما يلى:

الباب الأول: حياة رضوى عاشور العلمية وخدماتها الأدبية، وهذا الباب ينقسم إلى ثلاثة فصول درست فيها عن نشأة وترعرع شخصية رضوى عاشور ثم بينت رحلاتها العلمية والأدبية وجهودها الأدبية كما ألقيث الضوء على تاريخ المسلمين في الأندلس منذ الفتح الإسلامي الأول على يد طارق إلى سقوطها عام 1492م.

الباب الثاني: القضايا الاجتماعية والسياسية التي تعالجها"ثلاثية غرناطة" وهذا الباب هو الآخر ينقسم إلى ثلاثة فصول ويلقي الضوء على ما هي القضايا الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تناولتها رضوى عاشور في روايتها الثلاثية "ثلاثية غرناطة" وتركز القول في صورة العلم والثقافة والمرأة والوظيفة والمال والأخلاق في حي البيازين وأخيرا يعين الباب مكانة الرواية من حيث التاريخ.

الباب الثالث: الدراسة الفنية لـ "ثلاثية غرناطة" وآراء الأدباء عنها وهذا الباب الأخير يقوم بدراسة الرواية من حيث الفن واللغة والأدب والأسلوب ويذكر أقوال الأدباء وآراء الباحثين حول هذه الرواية.

وبهذه المناسبة يجب أن أقدم الشكر والامتنان لمشرفي الكريم الدكتور محمد قطب الدين الذي ساعد في خلال إعداد هذه الرسالة بتوجيهاته القيمة وإرشاداته المشكورة للوصول إلى النتائج الإيجابية، فله مني جزيل الشكر والتقدير وكذلك أود تقديم مشاعر العرفان والتقدير إلى كافة أساتذتي الأجلاء الذين تربيت على أيديهم وتلقيت منهم الخيرات الكثيرة.

وقد بذلت في هذا البحث كل الجهد للتجنب عن الأخطاء بقدر الإمكان ولكن الكمال لله سبحانه تعالى، فإن كان فيه جودة حسنة فهو من الله تعالى وإن كان فيه نقص وخطأ فهو بقلة باعي وعدم معرفتي وعلمي. وأخيرا أدعو الله تعالى أن يجعل هذا العمل المتواضع في خدمة اللغة العربية ويجعله منارا للسائل، والله هو الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

محمد أرشد علي

مركز الدراسات العربية والإفريقية

كلية دراسات اللغة والأدب والثقافة

جامعة جواهر لال نهرو

نيو دلهي– 67

الباب الأول

حياة رضوى عاشور العلمية وخدماتها الأدبية

- الفصل الأول : مولد رضوى عاشور ونشأتها البدائية
- الفصل الثاني: جهود رضوى عاشور العلمية وآثارها الأدبية
- الفصل الثالث: نظرة عامة على تاريخ المسلمين في الأندلس

الباب الأول
حياة رضوى عاشور العلمية وخدماتها الأدبية

منذ فجر التاريخ الجديد واحتكاك العرب بالغرب، تطور الأدب العربي تطورا ملحوظا، وشهد ازدهارا واسعا، فتنوعت ألوانه واشكاله، وتعددت فنونه ومجالاته. ومن أبرز تلك الألوان والأشكال الأدبية والفنية هي الرواية التي تعد أكبر أنواع السرد من حيث طولها، وأرسخ الأشكال التعبيرية الأدبية في تنوع مواقفها ومساحتها الزمانية، وأوسع المجالات للتعبير عن الأحداث الكبرى في حياة الأفراد والشعوب، وهي تعالج موضوعات تاريخية واجتماعية وعاطفية و إنسانية أخرى، فلذلك عدت الرواية بانورامية الأحداث الهامة وديوانها، أو مفتاح الغرف السرية أو هي مايحجبه التاريخ فهي توفر لنا تلك الجوانب للأحداث التي لم يستطع التاريخ أن يصل إليها أو يخجل من ذكرها. فالتاريخ خلفية الحاضر وصورة الماضي. والرواية تسهم في ذلك بوصفها إحدى أدوات تصوير التاريخ الأكثر تفصيلا وصدقا في استجلاء أحداثه.

ومن هنا نستطيع أن نقول بأن الرواية لها علاقة وطيدة بالتاريخ، يدعم هذه الحقيقة تزامن صعود الرواية في القرن التاسع عشر مع صعود علم التاريخ،[1] ولكن هناك فرق بسيط بين التاريخ والرواية، هو أن التاريخ وثائق تصور الزمن وأحداثه لمجتمع من دون تدخل من المؤرخ الذي يعمل على تسجيل الوقائع ونقلها بأمانة وموضوعية، حرصا على سلامتها ومصداقيتها، أما الرواية فهي تستخدم التاريخ وتستلهم المادة من أحداثه بشكل فني لا بشكل

[1].فيصل دراج، الرواية وتأويل التاريخ، المركز الثقافي العربي، ص5.

حرفي لمعالجة قضية حية من قضايا المجتمع أو لتمجيد حدث معين، كان له صدى في الماضي، وأحدث فرقا في حياة الأمة، وذلك من أجل الاستئناس به ومحاكاته، هكذا يكون الروائي خلاقا ليس بناقل كمؤرخ.[1]

هذا النوع من الرواية التي تسمى بالرواية التاريخية، أي الرواية التي تمتزج التاريخ بالخيال وتصور عهدا من العهود أو حدثا من الأحداث بأسلوب روائي سائغ مبني على معطيات التاريخ ولكن من غير تقيد بها أو التزام لها في كثير من الأحيان. [2] قد برز في كتابة مثل هذه الرواية كثير من الروائيين والروائيات العرب الذين استلهموا من التاريخ المادة وصاغوها في صورة فينة أنيقة، ومنهم: الأديب العملاق والروائي الكبير الحائز على جائزة نوبل نجيب محفوظ وعلي الجارم ومحمد سعيد العريان وعادل كامل وعبد الحميد جودة السحار ومحمد فريد ابو حديد وعبد الرحمن الشرقاوي وعلي أحمد باكثير ومحمود طاهرلا شين وطاهر وطار ومحمود تيمور وعيسى عبيد ومحمد لطفي جمعة ويوسف السباعي وغيرهم الكثير.

ومن هولاء الروائيين والروائيات الذين عنوا بالتاريخ في رواياتهم، الروائية القاصة الناقدة والأستاذة الجامعية الكبيرة رضوى عاشور التي أخذت من الأحداث التاريخية مادة لها لمعجم رواياتها، وتركت لنا نماذج حية وثروة هائلة في هذا المجال كـ"ثلاثية غرناطة" التي حدثت فيها عن الأيام الأخيرة للدولة الإسلامية في الأندلس و"الطنطورية" التي ذكرت فيها عن ماسأة فلسطين وما يمر به الفلسطينيون في الداخل والخارج وغيرها من رواياتها الأخرى. فنستعرض كل هذا، نستعرض أعمالها العلمية وخدماتها الأدبية، ونأتي بتاريخ وجيز عن

[1].محمد احمد القضاة: التشكيل الروائي عند نجيب محفوظ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص43.

[2].المرجع نفسه، ص 43. وأيضا "غرناطة في الرواية، دراسة في خمسة نماذج روائية لجمانه مفيد عبدالله السالم، الجامعة الأردنية، الأردن1992م، ص 1.

تاريخ المسلمين في الأندلس الذي هو موضوع روايتها الشهيرة "ثلاثية غرناطة"، ولكننا أولا نرى مناسبا أن نبحث عن حياتها البدائية، وثقافتها الواسعة، ونشاطاتها العلمية والأدبية.

الفصل الأول

مولد رضوى عاشور ونشأتها البدائية

ميلادها ومراحل تعليمها:

ولدت الكاتبة المصرية المعاصرة الكبيرة رضوى عاشور في مدينة القاهرة من صباح يوم الأحد، 26 مايو عام 1946م الموافق 24 من جمادى الآخرة عام 1356 من الهجرة، من أبوين مصريين، وهي المولود الثاني للأسرة المكونة من أربعة أبناء، [1] إنها التحقت أولا بمدرسة الراهبات القريبة من بيتها، ولكن تجربتها في تلك المدرسة ما كانت رائعة وممتعة، والسبب يرجع إلى طبيعتها المتحررة وجوء تلك المدرسة الخانق، فشكت إلى أبيها بعد انتهاء العام الدراسي بأنها لا تعود إلى تلك المدرسة، فأدخلها أبوها مدرسة أخرى في العام التالي، فهي مدرسة فرنسية،[2] أسست عام 1956م، وتغيرت الإدارة، وتغيرت معها المناهج الدراسية، وأصبح لها إسم عربي بدل الإسم الفرنسي على الكراسات والشهادات وباب المدرسة وسياراتها،[3] استطاعت رضوى عاشور التكيف في هذه المدرسة بشكل أفضل، وقضت فيها تسع سنوات من أكتوبر 1951م حتى يونيو 1960م، وأكملت المرحلة الابتدائية والمتوسطية

[1].خلود إبراهيم عبد الله جراد: تطور البناء الدرامي التاريخي في روايات رضوى عاشور، رسالة الماجستر، جامعة الشروق الأوسط2014-2013م، ص 25.
[2].رضوى عاشور: أطياف، ص19.
[3].نفس المصدر، ص23.

التعليمية،[1] إنها درست خلال هذه السنوات التاريخ والجغرافية واللغة والأدب والتربية الوطنية وغير ذلك من المواد الأخرى الهامة.[2]

ثم انتقلت رضوى عاشور إلى مدرسة أخرى لتكمل المرحلة الثانوية، وبها ظلت ثلاث سنوات، وبعد الفراغ من هذه المرحلة الثانوية إنها التحقت بجامعة القاهرة عام 1963م، ودرست اللغة الإنجليزية في كلية الآداب، وتخرجت فيها عام 1967م، وحصلت على شهادة الليسانس بدرجة ممتازة مع مرتبة الشرف، وعينت أستاذة في جامعة عين شمس، وهي في سن الحادية والعشرين، فكانت هي صغيرة الحجم ونهيفة الجسم، وتبدو أصغر سنا من الطلاب الذين تدرسهم، ولكنها استطاعت بحذاقتها ومهارتها ووسعة ثقافتها خلق الإنسجام الكامل والتواصل التام بينهم وبينها، إنها درّست الطلاب في الجامعة اللغة الإنجليزية، وكذلك اللغة العربية والتاريخ والجغرافيا وعلم النفس والاجتماع والترجمة والشعر.[3]

إنها تواصلت دراستها إلى جانبها كونها مدرسة في جامعة عين شمس، وحصلت على شهادة الماجستر في الأدب المقارن من كلية الآداب لقسم اللغة الإنجليزية من جامعة القاهرة، وكذلك شاركت في الاحتجاجات الطلابية في ميدان التحرير احتجاجا على الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية في البلاد في عهد الرئيس أنور سادات.[4]

رحلتها إلى أمريكا:

ثم إنها غادرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام 1973م لدراسة الدكتوراه، فهي تقول: "غادرت القاهرة فجر 30 أغسطس 1973م، قبلت مودعي، دخلت إلى المنطقة الجمركية حاملة حقيبة زرقاء كبيرة بها ملابسي وبعض الكتب، وحقيبة يد صغيرة أودعتها

[1].خلود إبراهيم: تطور البناء الدرامي التاريخي في روايات رضوى عاشور، ص25.
[2].رضوى عاشور: أطياف، ص23.
[3].نفس المصدر، ص26.
[4].نفس المصدر، ص26.

جواز سفري المصري الأخضر وبطاقة الطائرة ومحفظة جلدية بها نقود وبضع صور عائلية".[1]

إنها كانت تريد دراسة الأدب الأفرو–الأمريكي، ويرجع قرارها لدراسة هذا الأدب إلى انشغالها بعلاقة الأدب بواقع النضال الشعبي، وأنها أرادت أن تدرس أدبا يدخل ضمن همومها الملحة.[2] فهي تقول: "لم أكن قد أتيت إلى الولايات المتحدة رغبة في الدراسة فيها عموما ولكن لاهتمامي بموضوع بعينه هو الأدب الأمريكي الأسود الذي أردت أن أقدم فيه رسالتي".[3] ووقع الاختيار عليها للحصول على بعثة من هذا النوع لسببين، أولها: أنها باحثة جادة، وثانيهما: أنها كاتبة تقدمية، وقد شجعتها على ذلك وأعانتها على حصول المنحة الدراسية السيده شيرلي جراهام ديبوا الكاتبة الأمريكية السوداء.[4]

التحقت رضوى عاشور بجامعة ماساتشوستس بأمهرست، وبدأت الدراسة حول الأدب الأفريقي الأمريكي وتاريخ حضارات القارة، كما هي تقول: "وأقرأ في الأدب الأفريقي وتاريخ حضارات القارة، تتسع المساحات أمامي وتترامى، وهذا الأرزق البحري حدود المكان، والزمن يسري مثقلا بالفعل كهذه الأنهار الثلاثة النيل والنيجر والكونغو، أخوض في الزمان فأنتمي للمكان."[5]

إلى جانب الدراسة إنها انشغلت في النشاطات السياسية والثقافية الأخرى، كما أنها أسست اللجنة المسماة بـ"لجنة الدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني" مع زملاءها، عددهم سبعة، ثلاثة من مصر واثنان من سوريا، ومن فلسطين ولبنان واحد واحد، فكان هولاء الطلبة يجتمعون في قاعة من القاعات ويشاركون في الحوار ويعملون على الوصول إلى

---

[1].رضوى عاشور: الرحلة، ص5.
[2].نفس المصدر، ص9.
[3].نفس المصدر، ص10-9.
[4].نفس المصدر، ص10.
[5].نفس المصدر، ص26.

عدد من النقاط المشتركة، ثم ينشرونها في جريدة "الديلي كوليجيان" الجريدة اليومية للجامعة، إنهم وضحوا موقفهم من خلال هذه النشرات والبيانات، وركزوا على أن عداءهم لإسرائيل ليس رفضا لليهود، أو عداء للسامية، بل هو رفض للصهيونية ولدولة الاستعمار الاستيطاني التي تربط مصالحها بمصالح الإمبريالية، تقول رضوى عاشور: "أوضحنا موقفنا في بياننا وفي عدة رسائل إلى المحرر مركزين على أن عداءنا لإسرائيل ليس رفضا لليهود وعداء للسامية، بل هو رفض للصهيونية ولدولة استعمار استيطاني ترتبط مصالحها بمصالح الإمبريالية، وبدأنا نتناوب العمل في الوقوف أمام مائدة المطبوعات بمركز الحرم، ولم تكن مهمتنا فقط توزيع النشرات وبيع الكتب بل كانت أساسا لتوضيح الاستفسارات حول القضية ومناقشة من يريد الدخول في حوار حول الموضوع".[1]

هذا موقفهم من إسرائيل والصهيونية أدى إلى تهديدهم من جانب طلبة "جماعة رابطة الدفاع اليهودي" وإثارة قلق عميق في نفوسهم، فشعرت رضوى عاشور بالخوف والرعب للمرة الأولى في الجامعة الأمريكية، كما هي تقول: "ولكني في هذه الجامعة الأمريكية التي درست وأقمت فيها شعرت لأول مرة منذ طفولتي المبكرة بالخوف يلح، لقد نجح هولاء الصهاينة في إثارة قلق عميق في نفسي، هل ينقض أحد منهم عليّ بعصا غليظة حتى يحطم رأسي".[2]

كذلك هي تقول: "أما الصهاينة فكانوا شديدي العدوانية تجاهنا، وكان أكثرهم عدوانين وشباب "رابطة الدفاع اليهودي" يسيرون داخل الحرم الجامعي بالطواقي على رؤوسهم وعلم إسرائيل على شكل قطعة قماش مستقبلية ملفوفة على ذراعهم، وكلما رأوا أحدا منا وقفوا يحدقون فيه باستفزاز إرهابي صارخ، ولم يجرؤوا على ضرب أحد منا خشية على أنفسهم

[1] .نفس المصدر، ص 31.
[2] .نفس المصدر، ص 33.

ومستقبلهم الدراسي، ومع ذلك فلم يعدموا وسيلة لإشعارنا بأنهم هناك على استعداد للفتك بنا في أية لحظة".[1]

إنها كانت تشعر بالإغتراب والغربة في أيامها المبكرة في أمريكا، وهذا طبيعيي، لأنها كانت في بلد جديد، في مجمتع جديد، وبيئة جديدة، مفارقة أهلها خلفها في مصر ، ولكن زوجها مريد البرغوثي–الذي ترجع جذور علاقتهما إلى مرحلة الدراسة الجامعية الأولى، وكان هو مؤظفا في إذاعة المقاومة الفلسطينية بالقاهرة، فقد نشأت في البداية صداقة وامتدت من عام 1963–1970م، ثم تكللت بالزواج على غير رغبة من أهلها، ما كان هو زوجا فقط، بل كان حبيبا وصديقا ويرسل إليها المراسلات بدوام التي كانت تخفف عنها مرارة الغربة والإغتراب وتحمل إليها البهجة والسرور، فكان مريد شاعرا، ورسائله قصائد، وللشعر تأثير السحر على الأرواح، فكيف بروح الحبيبة؟ فكانت قصائده تحركها باتجاه الأمام وتعينها وتمدها بالقوة والطاقة.[2]

على كل حال، إنها في هذا الجو الخانق وتحت هذا الإحساس بالغربة والإنفرادية فرغت من كتابة رسالة الدكتوراه تحت عنوان "البحث عن نظرية للأدب–دراسة للكتابات النقدية الأفرو–أمريكية" (The Search for a Black Poetics: A Study of Afro–American Critical Writings)

بالإنجليزية، وقدمتها إلى لجنة المناقشة، ونجحت في امتحان الدكتوراه، وكان الامتحان شفويا، وحصلت على شهادة الدكتوراة.

العودة إلى البلاد:

[1].نفس المصدر، ص32.
[2].نفس المصدر، ص52-51.

بعد الحصول على شهادة الدكتوراه إنها غادرت أمهرست صباح يوم الخامس من أغسطس 1975م عائدة إلى مصر بعد ما قضت في أمريكا سنتين وبضعة شهور بطريق رومان، فإيطاليا حتى وصلت القاهرة مساء الثاني عشر من أغسطس.[1] خلال هذين العامين اللذين قضتهما رضوى عاشور في أمريكا قد تغير المناخ في مصر بكثير، حينما هي غادرت القاهرة قبل عامين كانت العلاقة الدبلوماسية بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية مقطوعة منذ حرب 1967م، إنها سافرت من خلال السفارة الأسبانية، ولكن في هذين العامين قد قامت العلاقة الدبلوماسية، وزار الرئيس الأمريكي مصر ولقي حفاوة كريمة، وأن الحدة والمرارة التي كانت بين مصر وإسرائيل قد اختفت حتى وصل الجانبان إلى اتفاقية ينص بندها الأول على أن حكومتي مصر وإسرائيل قد اتفقتا على أن النزاع بينهما وفي الشرق الأوسط لا يحل بالوسائل العسكرية، فلذلك يجب البحث عن الوسائل السلمية لإعادة الأمن والسلام في المنطقة، ثم أغلقت إذاعة المقاومة الفلسطينية بالقاهرة حيث يعمل زوجها مريد البرغوثي، وفي الإعلام المصري راحت تبرز نغمة عن سلام عربي إسرائيلي، وإسرائيل تضرب الجنوب اللبناني، والحرب الأهلية اللبنانية تضطرم وتستعر، فسافر مريد البرغوثي للعمل في إذاعة المقاومة ببيروت، وبدأت رضوى عاشور عملها كمدرسة في كلية الآداب بجامعة عين شمس،[2] هكذا افترق الزوجان مرة ثانية.

العوامل المؤثرة في حياة رضوى عاشور:

إن العوامل التي أثرت في حياة رضوى عاشور وفي مسيرتها العلمية والأدبية، فهي كثيرة ومن أهمها: إنها درست في المدارس المختلفة ونهلت من المناهل المتنوعة، إنها درست إلى جانب اللغة الإنجليزية التي هي موضوع تخصصها، اللغة العربية والمنطق والفلسفة

[1] .نفس المصدر، ص 173.
[2] .نفس المصدر، ص 174-173.

والتاريخ والشعر وغير ذلك من المواد الأخرى، إنها غادرت لأمريكا ولقيت بأناس من مختلف الجنسيات والعرقيات والديانات، وتبادلت معهم الحوار والثقافة، وفهمتهم من قريب، هذا الذي أغناها ثقافة وعلما ومعرفة وأعانها استيعاب الاختلاف والتنوع وقبول الآخر، وانعكس كل ذلك على شخصيتها انعكاسا إيجابيا، فأصبح التصالح مع الذات من أبرز صفاتها، وأخذت تصفي للآخر، وتشرح ذاتها بهدوء دون تعقيدات.

وكذلك إن الزمن الذي ولدت فيه رضوى عاشور وعاشته، ظل مليئا بالويلات والأحداث والاضطرابات السياسية والإجتماعية والإقتصادية على الصعيد العالمي والمحلي، إن العالم العربي والإسلامي كان منقسما بين فئات كثيرة، قد ظهرت إسرائيل كعار على العالم العربي وبدأت الهجمات المتوالية على فلسطين والدول المجاورة، وانهزم العرب أمام القوات الإسرائيلية كل مرة بسبب عدم وجود القيادة اللائقة العربية لمواجهة هذه الهجمات الشرسة، والغرب ظل متعصبا لإسرائيل وأمدها بكل وسائل طوال هذا الزمن، وكذلك الحرب الأهلية العربية المتعددة والحرب الخليجية الأولى والحرب الخليجية الثانية وهجوم أمريكا على العالم العربي مع حلفاءها تحت إسم الإرهاب، والأوضاع الاقتصادية الدنيئة للدول العربية وتخلفها في مجال التكنولوجيا والعلوم، والثورات الاجتماعية الأخرى كان لها أثر واضح في حياتها العلمية ومسيرتها الأدبية، وهي الأحداث التي عاشتها وشاركت منذ نعومة أظفارها، حتى نزلت في ميدان التحرير عام 1972م احتجاجا على اعتقال الطلبة المحتجين الذين كانوا يحتجون خلاف الأوضاع السياسية والاقتصادية التي كانت تعاني مصر في زمن أنور سادات، وشكلت مع مجموعة من الكتاب والصحافيين والفنانين لجنة وطنية، وأصدرت اللجنة بيانا يعبر عن موقفها من الأحداث التي تجري، وتم تصوير ذلك البيان وتوزيعه، وتم إرسال البيان إلى رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ورئيس مجلس الشعب بعد التوقيع من الناس،

وكانت رضوى عاشور من بين ثلاثة أشخاص خرجوا من نقابة الصحفيين سيرا على الأقدام إلى مكتب البرقيات لإرسال البيان.[1]

ومن الأحداث الإقليمية التي كان لها تأثير على حياة رضوى عاشور وأدبها، اجتياح لبنان عام 1982م وحصار بيروت، ومذبحة صبرا وشاتيلا بعد أن استولت القوات الإسرائيلية عليها، والإنتفاضة الأولى عام 1987م والإنتفاضة الثانية عام 2001م، وقتل آلاف من الفلسطينيين الأبرياء، بما فيهم الرجال والنساء والصبيان، وتشردهم واضطرارهم إلى الخروج من بيوتهم وعيشهم في المخيمات في الداخل والخارج عيشة حرجة ضيقة، فهذه الأحداث والأوضاع كلها جعلت كاتبتنا المصرية تزعج وتعيش بكل تفاصيلها وفروعها، وتتمرد وتثور عبر لسانها وقلمها السيال، إنها لا تستطيع إلا أن تشعر بالقضية الفلسطينية، فهي تنتمي للشعب الفلسطيني حنى النخاع،[2] كما تتجلى هذا الألم والوجع من خلال روايتها "الطنطورية" وسيرتها الذاتية "أطياف" و"الرحلة" وغيرها من الكتب، وكما علمنا أنها في أثناء إقامتها في الولايات المتحدة الأمريكية أسست مع زملاءها "لجنة الدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني" ووضحت موقفها من إسرائيل واليهود.[3]

وكذلك الأحداث السياسية الإقتصادية الداخلية المصرية كان لها أثر كبير في مسيرتها الأدبية، خاصة معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية في عام 1981م، إنها طردت من الجامعة، وتم إغلاق إذاعة المقاومة الفلسطينية واعتقاله ثم ترحيله، وهكذا تفريق الزوجين الحبيبين الصديقين، الذي ترك أثرا كبيرا في حياتها العلمية والأدبية، كما تتجلى تلك الآلام في روايتها "فرج".

---

[1].خلود إبراهيم: تطور البناء الدرامي التاريخي في روايات رضوى عاشور، ص34.
[2].رضوى عاشور: أطياف، ص40.
[3].رضوى عاشور: الرحلة، ص31.

هذه هي بعض العوامل المؤثرة التي أثرت حياة رضوى عاشور أثرا كبيرا حتى جعلتها كاتبة مصرية تتمشى مع حياة عامة الناس وآلامهم وآمالهم، وتشترك في مصائبهم وويلاتهم، وتثور وتتمرد على الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية السائدة على المجتمع العربي والإسلامي، واتخذت لذلك التاريخ مادة لمعجم رواياتها لتثير بين عامة الناس وخاصتهم الروح الإسلامية والشجاعة والصلابة التي كان يتصف بها سلفنا الصالح، وتتقوى هممهم لمواجهة المعاناة والآلام ويشقوا الطريق لأيام القادمة الصالحة.

الفصل الثاني

جهود رضوى عاشور العلمية وآثارها الأدبية

تبتدأ جهود رضوى عاشور العلمية بالتدريس، كما علمنا في الفصل السابق بأنها عينت مدرسة في جامعة عين شمس بعد الحصول على شهادة الليسانس بامتياز مع مرتبة الشرف، وهي كانت طالبة الماجستر في جامعة القاهرة، إنها درّست في هذه الجامعة إلى جانب اللغة الإنجليزية، اللغة العربية والتاريخ والجغرافيا وعلم النفس والاجتماع والترجمة والشعر.[1]

ثم غادرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية لدراسة الدكتوراه في جامعة ماساشوستس بأمهرست في قسم الأفرو–أمريكية، [2] وبعد رجوعها منها إنها تولى نفس المنصب في نفس الجامعة التي كانت فيها من قبل إلى عام 1981م،[3] في تلك السنة هي طردت من الجامعة لموقفها السياسي من المعاهدة التي تم توقيعها بين مصر وإسرائيل عام 1981م، واعتقلت كثير من صديقاتها وأصدقاءها، [4] ثم إنها اشتغلت بين 1990م إلى 1993م كرئيسة للقسم اللغة الإنجليزية وآدابها بكلية الآداب بجامعة عين شمس وبقيت بها حتى عام 2013م، كما عملت أستاذة زائرة في كثير من الجامعات العربية والأوروبية، خلال هذه المدة الطويلة التي انشغلت فيها مدرسة في الجامعات المختلفة، إنها أشرفت على عشرات الرسائل الجامعية المقدمة لنيل الماجستر والدكتوراه، وقيمت عشرات الأبحاث المقدمة للحصول على درجتي أستاذ وأستاذ مساعد وعلى الدكتوراه والماجستر، كما حاضرت وشاركت في مؤتمرات وندوات

[1].خلود إبراهيم: تطور البناء الدرامي التاريخي في روايات رضوى عاشور، ص26.
[2].رضوى عاشور: الرحلة، ص52-51.
[3].نفس المصدر، ص174.
[4].خلود إبراهيم: تطور البناء الدرامي التاريخي في روايات رضوى عاشور، ص32.

في عدد من الجامعات والمحافل الثقافية في العديد من المدن العربية في المشرق والمغرب، وفي جامعة هارفارد، ومركز كيندي للفنون في الولايات المتحدة الأمريكية، وجامعة كمبردج، ومعرض لندن للكتاب في بريطانيا، وفي معهد العالم العربي في باريس، والمكتبة المركزية في لاهاي (The Hague)، ومعرض فرانكفورت للكتاب في ألمانيا وفي إيطاليا وأسبانيا وسويسرا والهند وغيرها.

وكذلك شاركت رضوى عاشور في الحياة الثقافية العربية عبر كتبها ومقالاتها ومحاضراتها في مصر وفي مختلف العواصم العربية والأوروبية، وعبر انتماءها إلى لجنة الدفاع عن الثقافة القومية واللجنة الوطنية لمقاومة الصهيونية في الجامعات المصرية ومجموعة 9 مارس لاستقلال الجامعات وغيرها من التشكيلات الأهلية.[1]

كتبت رضوى عاشور مجموعة كبيرة من الكتب، وجالت في مجالات متنوعة، ومنها: النقد والرواية والقصة القصيرة والدراسة الأدبية، ومعجم أعمالها يتميز بالتحرر الوطني والإنساني، لأنها كاتبة وقفت أدبها منذ فجر حياتها الإبداعية المبكرة لمواجهة أحداث واقعها وظروف مجتمعها القاسية الحرجة، وحرصت أن تكون المثقفة المدافعة عن حق الإنسان في الحرية والكرامة، وأمضت حياتها وحاربت بقلمها الظلم والعدوان والقهر والكبت والإستبداد السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي في وقت كانت البلاد تغرق في الظلام الهالك، وهو الأمر الذي أكسب لها كثيرا من المصائب والويلات طوال حياتها، حتى نفي زوجها الشاعر "مريد البرغوثي" فلسطيني الجنسية من البلاد، مما أدى إلى تشتت أسرتها الصغيرة المكونة من ثلاثة أفراد، هي وزوجها وإبنها الصغير الوحيد تميم، ولكنها مع ذلك لم تكل ولا تمل من وقوفها في وجه الطغيان لآخر لحظة من حياتها، وظلت تشارك في الثورات

[1].خلود إبراهيم: تطور البناء الدرامي التاريخي في روايات رضوى عاشور، ص36-35.

الاجتماعية عبر انخراطها في العديد من الجمعيات المدنية، ومنها: لجنة الدفاع عن الثقافة القومية" و "اللجنة الوطنية لمقاومة الصهيونية في الجامعات المصرية" و "مجموعة 9 مارس لإستقلال الجامعات "[1] كما أنها شاركت في الثورة الطلابية ضد الأوضاع السياسية والاقتصادية الدنيئة التي تعاني منها مصر في زمن الرئيس أنور سادات عام 1972م، وأخذت موقفا تنكرا إزاء المعاهدة المصرية الإسرائيلية في سبتمبر عام 1981م،[2] إنها استمرت تدريس الطلبة معنى الحرية والاستقلال والحركة والكرامة وأخلاقيات الثورة في الصفوف وخارج الصفوف، ووقفت في ثورتهم تدافع عن حقوقهم وتتصدى معهم، وظلت على دعوتها إلى الكفاح والحرية إلى أن توفيت مساء يوم الأحد 30 نوفمبر 2014م عن عمر يناهز 68 عاما، لتظل أيقونة ورمزا وقدوة لطلابها وقراءها ولمن التقوا بها وعرفوها شخصيا ومن التقو بها وعرفوها على صفحات إبداعاتها الأدبية.

لم يكن قلم رضوى عاشور قلما عاديا يسطر بعض الأحرف والكلمات بشكل منمق باحثا عن جماليات اللغة، وباعثا على تسلية الوقت بالكلمات، بل إنها كانت تحمل قضية أمة، وهم الشعب. كانت تترسم خطى حضارتنا خلفناها وراء ظهورنا وجهلناها، وكانت تحرص على بعثها من الماضي لنعي ماضينا ونرسم مستقبلنا، وربما ساعدها في ذلك تخصصها الإكاديمي وموهبتها المتنوعة واطلاعها الواسع على الأدب العالمي بمختلف فروعه، إنها استطاعت أن تقوم بصيانة وقارها الإنساني ونزعتها الإنسانية طوال سيرها الإبداعي، وما هربت خلف الشهرة والجاه، بل نزعت إلى البحث عن حقيقتها ذاتها وسط خراب الواقع والتاريخ من حولها.

[1].المصدر نفسه، ص35.
[2].رضوى عاشور: أثقل من رضوى عاشور سيرة ذاتية، ص25.

بدأت رضوى عاشور رحلتها الأدبية والإبداعية من النقد الأدبي، إن نقده يتميز بالأصالة والجدية والشفافية والدعوة إلى كتابة أدب يثير هموم الأمة وآلامها وآمالها وقضاياها في كل طيات صفحاتها ، ويحثها على بناء مستقبل زاهر من خلال استعراض الماضي والحاضر، ثم توجهت رضوى إلى كتابة القصة والرواية، إن معظم رواياتها وقصصها تتميز بإستلهام المادة والخيال من التاريخ، حتى يمكن لنا القول بأنها تخصصت في مجال كتابة الرواية التاريخية الواقعية، وأن التاريخ حيز مساحة كبيرة في جل أعمالها الروائية وسيرتها الذاتية، فقد كتبت سيرة سنوات عمرها في رواية "أطياف"، كما كتبت عنها في أول تجاربها الكتابية "الرحلة–أيام طالبة مصرية في أمريكا"، وكذلك كتبت في كتاب "أثقل من رضوى" أيام سنواتها الأخيرة في رحلتها مع المرض وأحداث الربيع العربي، من قرأ الكتاب قد يعي أنه لم يكن كتاب سيرة ذاتية بقدر ما هو تاريخ لحقبة زمنية من أهم الفترات، ففي العصر الحديث، لم تروي أحداث حياتها الشخصية بقدر ما كانت تصب اهتمامها على تسجيل الثورة وما تلاها في فترة تولى المجلس العسكري شئون البلاد.

تقول الكاتبة خلود إبراهيم: "فرضوى عملت جاهدة على المشاركة بالأحداث مذ بدء وعيها بها، وما أن كبرت حتى أصبحت مشاركتها أوعى، فهي تجتهد وتدقق في تحليل الأحداث، وتتلمس تأثيرها على واقع المجتمع خاصة، والأمة عامة، وتربطها بأحداث سبقت وأن حصلت في الزمن البعيد، أو الزمن القريب، لتشكل سلسلة متصلة تربطها بالواقع فيما بعد، وتحذر لما قد يحدث بالمستقبل".[1]

لم تقرأ رضوى عاشور التاريخ في الجامعة ولكن التاريخ ظل أقرب إليها في كل مرحلة من مراحل الدرس والتدريس، وهذا الشغف بالتاريخ ازداد حينما بدأت كتابة سيرتها

[1].خلود إبراهيم: تطور البناء الدرامي التاريخي في روايات رضوى عاشور، ص50.

الذاتية، فأحبته، وتعلقت به، واختارته طريقا لها في كتاباته، وكل ما أرادت أن تقوله من أحداث تاريخية رغبت ان تقوم على أعتابها مطولا، وبشيء من التفصيل، كمذبحة ديرياسين التي حاولت نقشها رسما كتابيا، ومثلت مذبحة البشر لتكون خالدة خلود الزمن، تحمل العبرة من الماضي للأجيال القادمة، تقول خلود إبراهيم: "هذا دليل واضح على أن التاريخ يعمل في نفسها ويمتلك المساحة الكبرى وعبرت رضوى عاشور بوضوح عن مدى تأثير التاريخ وكتابته عليها، وعلى توازنها النفسي. فكتابة التاريخ بالنسبة للكاتبة كان تفريغا وتعبيرا عن مشاعرها، ووجهات نظر مكتوبة لا يمكن تفريغها وتقديمها بطريقة تليق بعظيم الحدث، وبيان تأثيره على الواقع المعيش إلا بالكتابة، وذلك لتوضيح الرؤى عبرها إلى أكبر عدد ممكن من جمهور القراء".[1]

تقول رضوى عاشور بنفسها في سبب حضور التاريخ في نصوصها الروائية، فهي تقول: "إنه يعود لأسباب عدة، أولها: أن لدي قناعة أي واقع نعيشه هو تاريخ من نوع ما، وثانيهما: أن وشائج الصلة في تقديري بين الرواية والتاريخ وشائج قوية، فالعناصر المشتركة بينهما متعددة".[2] كما أنها تبوح عن العلاقة الخاصة التي تربطها بالتاريخ لا بوصفه ماضيا فحسب، بل أيضا بوصفه عناصرة فاعلة ومتفاعلة تشكل واقعنا اليومي.[3]

أما الكتب والمؤلفات الأدبية والنقدية التي كتبتها رضوى عاشور طوال حياتها الإبداعية وتركت لنا كثروة عظيمة، وهي تنقسم إلى قسمين، أولهما: الرواية والقصص. وثانيهما: النقد. فهنا نذكر أسماء تلك الكتب والمؤلفات مع التعريف المؤجز لها، أما الروايات والقصص وهي كما يلي:

أولا: الروايات والقصص:

---

[1].نفس المصدر، ص54.
[2].جريدة الأهرام، رضوى عاشور، ص1.
[3].نفس المصدر، ص1.

1 **الرحلة–أيام طالبة مصرية في أمريكا،** (الرواية) دار الآداب، بيروت، 1983م. هذه رواية أولى صدرت لها، وهي في الحقيقة سيرة ذاتية وقصة أيامها من مغادرتها القاهرة فجر أغسطس 1973م إلى الولايات المتحدة الأمريكية إلى رجوعها إليها منها مساء الثاني عشر من أغسطس 1975م، فهي تصف خلال هذا الكتاب الجامعة ونشاطاتها المتنوعة التي توحي بجو الحرية والحركة التي تتوقع من جامعة أمريكية وجامعات عالمية أخرى، كما أنها تحكي غربة وقصة حلم عاشته لتصل إليه رغم كل الصعوبات، فالكتاب أشبه بيوميات ومذكرات يومية شخصية لرضوى عاشور.

2 **حجر دافئ** (الرواية)، دار المستقبل، القاهرة، 1985م. وهي الرواية الثانية التي كتبتها رضوى عاشور، وهي رواية تدور أحداثها حول أحوال فترة السبعينات واضطراباتها وأوضاع الأسرة المصرية وجو الظلم والكبت والقهر والفساد السياسي والاجتماعي الذي كان سائدا في تلك الفترة، وكذلك هي تحكي عن احتجاج الطلاب ضد المعاهدة المصرية الإسرائيلية وسيطرة رأس المال على المجتمع، وبدأ ت موجة الهجرة المصرية للدول الخليجية والأوروبية بحثا عن عيشة كريمة، كذلك تحكي الرواية عن ألوان مختلفة للمرأة منها الأم والبنت والشابة والزوجة وعلاقتها بالرجل، وضرورتها لسير الحياة الإنسانية. إن رضوى عاشور تسخط على من ينظرون إلى المرأة نظرة دونية على أنها مخلوقة ناقصة العقل، فهي تقول أن المرأة البسيطة بطلة شجاعة في مواجهة الحياة مع كل العراقيل والتعقيدات الاجتماعية والسياسية.

وتستطيع أن توجه العالم إلى مستقبل أفضل.

على كل حال، الرواية رائعة سهلة ممتعة، إنها استطاعت من خلال الوصف تجسيد الفترة والأحداث والتطورات التي حدثت في تلك الفترة بأسلوب مميز ومؤثر، ودمجها

بالحياة الواقعية التاريخية مع إظهار الجانب المناضل من شخصيتها وإظهار دور المرأة في المجتمع، والمساواة بين الرجل والمرأة.

3 **خديجة وسوسن** (الرواية)، دار الهلال، القاهرة، 1987م. هذه الرواية الثالثة التي نشرتها رضوى عاشور، وهي الرواية غير التاريخية من مجمل رواياتها، وهي قصة الأم "خديجة" التي يلقبها الجميع بالملكة في عنادها وقوتها وحسم قراراتها، والبنت "سوسن" المجبورة المقهورة المسكينة التي تتمرد في الأخير، فالرواية جيدة ممتعة جدا، تسارع أحداثها ودراميتها من حيث تجعلنا نشعر بأننا نشاهد مسلسلا مصريا تنعكس فيها كثير من القضايا الإجتماعية والسياسية الاقتصادية المصرية لذلك الوقت.

4 **رأيت النخل** (مجموعة قصصية)، نشرت من الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1987م، هذه مجموعة من القصص التي تضم ثلاثين قصة قصيرة رائعة، بعضها لا تتجاوز إلى خمسة أسطور، تعالج الأحداث والتطورات السياسية والإجتماعية التي حدثت في الثمانينات، وكذلك تخاطب بعضها قضايا المرأة وطموحها وهمومها وآلامها وآمالها وضعفها وقوتها بلغة شفافية بسيطة بليغة، لا رموز فيها ولا إشارات، والأسلوب فيها على حسب عادة رضوى عاشور سهلا رائعا ممتعا.

5 **سراج** (الرواية)، هذه الرواية الرابعة التي كتبتها رضوى عاشور نشرت من دار الهلال، القاهرة، 1992م لأول مرة، تختلط أحداثها بين الواقع والخيال، وتتحدث عن ظلم الأمراء والحكام الطغاة والعبودية والحرية وعن تواطؤ السلاطين للسيطرة على مقدرات الشعوب، وأنهم كيف يستبدون الحكم ويبسطون نفوذهم بتعميق الجهل عند الشعوب، ترصد الرواية وقائع ثورة جماعية قام بها شعب الجزيرة الصغيرة المتخيلة الواقعة ما بين شاطئ زنجبار واليمن لخلع سلطان الجزيرة الطاغية ، والرواية تشبه

في تفاصيلها بثورة مصر وأحداثها، وتصف بين طياتها كثيرا من الويلات الإجتماعية والسياسية، وتتجلى فيها قدرة رضوى عاشور على المزج بين الواقع والخيال ومعالجتها للفكرة بشكل أدبي رائع وأسلوب متفرد، كما تتجلى دعوتها إلى ضرورة المقاومة والنضال الشعبي من أجل الحرية حتى وإن كان الثمن حياتنا وأملاكنا، كما لقي الثائرون في الرواية مصيرهم المؤلم والفجع في النهاية، فالرواية على قصرها مؤثرة جدا، لغتها سهلة رصينة بسيطة.

6 **غرناطة** (الجزء الأول من ثلاثية غرناطة)، نشرت من دار الهلال، 1994م.

7 **مريمة والرحيل** (الجزءان الثاني والثالث من الثلاثية)، نشرت من دار الهلال 1995م، نشرت الطبعة الثانية بعنوان "ثلاثية غرناطة" من المؤسسة العربية للنشر، بيروت، 1998م، والطبعة الثالثة عن دار الشروق، القاهرة، 2001م، وصدرت طبعة خاصة في سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة، 2003م، سنستعرض هذه الرواية في الفصول الآتية، فلذلك لا نكرر الكلام هنا.

8 **أطياف** (الرواية)، نشرت هذه الرواية لأول مرة من دار الهلال، القاهرة، 1999م، وكذلك من المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1999م، مزجت رضوى عاشور في هذه الرواية بين سيرتها الذاتية وسيرة شخصيتها "شجر" المتخيلة القريبة منها، وهي شخصية تبتكرها الكاتبة لتروي سيرتها الذاتية من خلالها بحيث كأن كلا منهما انعكاس لروح الأخرى، ولا تتركها إلى نهاية الرواية، ولكن بمرور الوقت يظهر أن رضوى عاشور خلقت شخصية شجر لتجعلها تعيش أحداثها وتشاهد التطورات التي حدثت في حياتها وفي زمنها، كنكسة فلسطين ومظاهرات الطلبة عام 1971م وحرب لبنان الأهلية وكامب ديفيد واعتقالات ستمبر وخروج المقاومة من لبنان

ومذبحة صبرا وشاتيلا وعاصفة الصحراء ومعاهدة أوسلو في بداية التسعينات وغير ذلك من الأحداث الكبرى، كما تتجلى في هذه الرواية حياة رضوى عاشور الشخصية والأسرية والاجتماعية والتعليمية والوظيفية. على كل حال إن الرواية وحيدة منفردة في نوعها لأنها تصف حياة شخصية مع التركيز على التاريخ التي مرت بها هذه الشخصية.

9 **تقارير السيده راء** (نصوص قصصية)، نشرت من دار الشروق، القاهرة، 2001م، هذا الكتاب في الحقيقة مجموعة من إثني عشر تقريرا، كل منه يحمل قضية مختلفة عن الواقع والحياة والأفكار والروح والزمن والآمال والآلام والحزن والفرح، بشئ من البساطة أقرب إلى القصة القصيرة ، وأشبه بالمذكرات اليومية التي تحمل روح الرواية "أطياف"، كتبت رضوى عاشور في هذه المسودات أيام حياتها ومواقفها بأسلوب جيد، ولكن الشئ الجديد الذي نجده في هذه التقارير هو الأسلوب السخري اللاذع إلى حد المرارة، سخرت به رضوى الأوضاع السياسية والإجتماعية الراهنة.

10 - **قطعة من أوروبا** (الرواية)، نشرت هذه الرواية عن المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، ودار الشروق، القاهرة، 2003م، إن عنوان الرواية إشارة إلى ذلك المشروع الذي بدأه محمد علي وأبناءه كإسماعيل الخديوي والمثقفين المصريين الآخرين لتحويل مصر إلى قطعة من أوروبا، وعملوا لذلك، وبذلوا كل غال ورخيص في سبيله، فاستعانوا في ذلك بالمخطين والمعماريين والبنانيين الذين صمموا باريس الجديدة، ودعموا فيه الأوروبيون ويهود مصر حتى أقاموا بها العمارات والمحلات والشوارع والمقاهي الفخمة والفنادق والنوادي العالمية، فانقسم البلد إلى قسمين: قسم مازال يعيش في مصر الإسلامية، ويعتز بالحضارة والثقافة العربية، وهو أغلبية

الشعب المصري، وقسم يعيش في مصر الرومية–القاهرة– وهم الأمراء والحكام والملوك والحاشية الملكية ورجال الأعمال الذين سيطروا على مقدرات الأمور في مصر، تقص الرواية أيضا حكاية الملوك الذين حكموا مصر، وكيف حكموها، وكيف تعاملوا مع أناسها وثوراتها وانتفضاتها وأعداءها وثرواتها الثمينة، فتسرد تاريخ الوجع والقهر والكبت والسرقات والنهب الذي تقلب بين راحتيه هذاالبلد، إن زمن الرواية طويل جدا فيها تتبعت رضوى عاشور الأحداث منذ محمد علي إلى الحرب العراقية التي جعلت مصر قطعة من أمريكا مرورا بكافة النكبات والنكسات والهزائم التي واجهتها مصر، كذلك إنها تتبعت يهود مصر وبداية الحركة الصهيونية والأحوال المضطربة فيها، وكذلك تتجلى في الرواية قضية فلسطين بوضوح، في كثير من الأمكنة، الشخصية الأساسية في الرواية هي شخص غامض ذو حياة مضطربة يدعي الناظر، هو رجل مثل آلاف رجل عاش تلك الحياة الصعبة الحرجة الضيقة التي مرت بها البلاد، إن صح وصف الرواية في مجملها، فهي رواية جذابة شيقة مؤلفة من عشرين فصلا، فيها من المعلومات التاريخية تسردها لنا رضوى بأسلوبها الرشيق الراقي الممتع ولغتها الجميلة.

11 – **فرج** (الرواية)، نشرت عن دار الشروق، القاهرة، عام 2008م، هذه الرواية تقدم سيرة ندى عبد القادر التي عاشت من خلال تجربة ثلاثة أجيال من المساجين متعاقبة من أسرة تهتم بالسياسة، فتعرض أولادها للإعتقال السياسي وقمع السلطة، أولهم والدها الأستاذ الجامعي في الخمسينات، ثم ندى لمدة شهرين في السبعينات وأخوها نديم المهندس المعماري الذي لم يتجاوز عمر ابنها المفترض في الألفية الثالثة ، وهكذا الرواية تشير إلى الحكومة المستبدة القائمة والظلم والكبت والقهر

السياسي الإجتماعي الذي يتوارثه البلد جيلا بعد جيل، وكذلك تشير إلى نمو روح الثورة والتمرد في الشعب التي تتمثل في شخصية الرواية "ندى"، وهي شخصية ما كانت عادية، ولكن لها فكرة وشخصيتها المتفردة، تلمح تمردها منذ الطفولة، تدخل كلية الهندسة ثم تتركها لتلتحق بكلية الآداب، وتتأثر بالحركة الطلابية والظروف السياسية في السبعينات، وسبب روح التمرد فيها يرجع إلى عدم رضاها في العيش تحت الكبت والقهر السياسي كما يفعل الآخرون.

إن الرواية تمتزج(مزيج) بين الحقيقي والمتخيل، ومن الأحداث الحقيقية التي جاءت ذكرها فيها هي معتقل المحاريق وثورة باريس 1968م وقاهرة الستينات والسبعينات وقادة الحركة الطلابية المعروفة في تلك الحقبة وامتداد الحركات اليسارية في الأربعينات وأحداث تحرير الجنوب اللبناني والحرب على العراق وغزوها. دعت رضوى عاشور من هذه الأحداث إلى التمرد على النظام الذي يتصرف في حرية الشخص ووقته كل يوم و آن، ويملي حركات جسده ويمتلك طاقاته المادية والمعنوية، إن موضوع الرواية أقرب بكثير إلى حياة الكاتبة فلذلك قالها بعض الناس سيرتها الذاتية حكت من خلال شخصية ندى عبد القادر.

12 - **الطنطورية** (الرواية)، إن هذه الرواية لرضوى عاشور نالت أكثر شهرة ورواجا من بين رواياتها بعد ثلاثية غرناطة، نشرت عن دار الشروق المصرية عام 2010م، تسرد الرواية سيرة متخلية لعائلة فلسطينية منتسبة إلى قرية الطنطورة الواقعة على الساحل الفلسطيني جنوب حيفا، من سنة 1947م إلى سنة 2000م، تنطلق الرواية من مذبحة حدثت في هذه القرية عام 1948م على يد العصابات الصهيونية، حتى تقتلع عائلة الشخصية الرئيسية رقية –التي تحكي قصة عائلتها من طفولتها إلى

الشيخوخة بإلحاح إبنها حسن–بسبب هذه المذبحة وتهجر عائلتها من القرية إلى لبنان، وتسكن في صيدا، ثم في الإمارات ومصر ومدن عربية أخرى، كذلك تحكي الرواية عن شجرة اللوز والبرتقال والزيتون والياسمين والبحر ورائحته وعن الجيران وعن الخالة والخال والعم وأم الجميل، أما الحقائق التاريخية التي تحكي الرواية فهي القرية والمذبحة الواقعة فيها واللجوء إلى لبنان والمخيمات ومذابح صبرا وشاتيلا والحرب الأهلية اللبنانية واجتياح لبنان عام 1982م ، هذه هي بعض الحقائق التاريخية التي سردت بشكل أدبي فني.

على كل حال إن الرواية "الطنطورية" ليست رواية رائعة فنية فقط بل شهادة تاريخية مليئة بالمأسي والمعاناة، تاريخ أناس ماتوا ألف مرة ولكن الحياة بداخلهم انتصرت على الرغم من كل العراقيل والتعقيدات.

ثانيا– النقد:

كتبت رضوى عاشور كثيرا من الكتب النقدية، أبدت فيها آراء وأفكار مختلفة عن الأدب والفن، ولكن كثيرا من الناس أغفلوا هذا الجانب للكاتبة، فالكتب التي تركتها رضوى فهي كما يلي:

1 **البحث عن نظرية للأدب–دراسة للكتابات النقدية الأفرو–أمريكية** (بالإنجليزية) (The Search for a Black Poetics: A Study of Afro–American Writings) رسالة الدكتوراه قدمت لجامعة ماساشوستس بأمهرست في الولايات المتحدة الأمريكية، 1975م.

2 **الطريق إلى الخيمة الأخرى–دراسة في أعمال غسان كنفاني،** نشر عن دار الآداب، بيروت، 1977م، وهي قرأة نقدية تساعد القراء على الإقتراب أكثر من عالم غسان كنفاني الفني والإغناء بما فيه من عطاء معنى.

3 **جبران وبليك** (باللغة الإنجليزية Gibran and Blake)، نشر عن الشعبية القومية لليونسكو، القاهرة، 1978م. وهي الدراسة النقدية التي شكلت أطروحتها لنيل شهادة الماجستر سنة 1972م من جامعة القاهرة.

4 **التابع ينهض–الرواية في غرب أفريقيا،** نشر عن دار ابن رشد، بيروت، 1980م، وهي الدراسة حول التجارب الأدبية بالغرب الأفريقي طوال فترة انشغالها بالتدريس في قسم اللغة الإنجليزية لكلية الآداب بجامعة عين شمس.

5 **صيادون الذاكرة،** في النقد التطبيقي المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، 2001م، تحرير بالإشتراك مع الآخرين.

6 **ذاكرة المستقبل–موسوعة الكاتبة العربية (1999–1873م)** في أربعة أجزاء، مؤسسة نور للدراسات وأبحاث المرأة العربية، والمجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2004م.

7 **الحداثة الممكنة–الشدياق والساق على الساق:** الرواية الأولى في الأدب العربي الحديث، دار الشروق، القاهرة، 2009م.

كذلك عملت رضوى عاشور في مجال الترجمة أيضا، كما أنها أشرفت على ترجمة كتاب "القرن العشرون والمداخل التاريخية والفلسفية والنفسية (الجزء التاسع من موسوعة كمبردج لتاريخ النقد الأدبي)، نشر عن المجلس الأعلى للثقافة، عام 2005م، وكذلك ترجمت

بعض قصائد زوجها مريد البرغوثي إلى الإنجليزية بعنوان "منتصف الليل وقصائد أخرى" (Midnight and Other Poems)، نشر عن مكتبة أرك، لينك، 2008م.

تجدر الإشارة هنا إلى أن بعض الأعمال لرضوى عاشور القيمة ترجمت إلى بعض اللغات العالمية كالإنجليزية والإسبانية والإيطالية والإندونيسية وغيرها، إن ترجمتها نالت نفس الشهرة والمكانة لدى القراء كما نال أصلها.

الجوائز:

إن هذه الأعمال الأدبية والنقدية والفنية القيمة أكسبت لها عدة جوائز علمية وأدبية في المنصات العالمية والمحلية، وهي كما يلي:

- جائزة "أفضل كتاب" لعام 1994م عن الجزء الأول من ثلاثية غرناطة، من معرض القاهرة الدولى للكتاب يناير 1995م.
- الجائزة الأولى من المعرض الأول لكتاب المرأة العربية عن ثلاثية غرناطة نوفمبر 1995م.
- تكرمت ضمن ستة كتاب من مصر وستة من العالم العربى فى معرض القاهرة الدولى للكتاب على روايتي ثلاثية غرناطة وأطياف يناير 2003م.
- جائزة فلسطين كفافي الدولية للأدب (من اليونان) أكتوبر 2007م.
- جائزة تركوينيا كاردا ريللي فى النقد الأدبى (من إيطاليا) ديسمبر 2009م.
- جائزة بسكاوا بروزو على الترجمة الإيطاليا لرواية أطياف (من إيطاليا)2011م.
- جائزة سلطان العويس للرواية والقصة ديسمبر 2011م.[1]

[1].مقالة سارة الليثي عن حياة وأعمال رضوى عاشور، يمكن التطلع على المقالة في موقعها الخاصsaraalaithi-blogspot.in/2016/03/blog post_50.html

الفصل الثالث

نظرة عامة على تاريخ المسلمين في الأندلس

الآن منحت لنا فرصة أن نرجع إلى ذلك التاريخ الذي أثر رضوى عاشور أثرا كبيرا، وأهزها هزا عنيفا حتى وقفت أسعد أيام حياتها لتدوينه وعرضه في شكل أدبي فني رائع، وهو الإنتاج الذي نال شهرة عالمية ومكانة مرموقة بين الإنتاجات الإبداعية العربية المعصرة، ألا وهو رواية "ثلاثية غرناطة" التي تعالج الأيام الأخيرة القاسية للمسلمين في الأندلس.

جغرافية الأندلس:

إن الأندلس أو شبه جزيرة إيبيريا (La Peninsula Iberica) التي تضم اليوم إسبانيا والبرتغال تقع في الجنوب الغربي من القارة الأوروبية وتحدها البحار من جميع الجوانب عدا الجزء الشمالي حيث تفصلها سلسلة من الجبال من بلاد الغال (فرنسا)، فيحدها المحيط الإطلسي من الجانب الغربي والشمالي، ويقع البحر المتوسط في جانبها الشرقي والجنوبي، [1] وهي عبارة عن هضبة متوسطة ارتفاعها 600 متر عن سطح البحر، وهي أعلى بلاد أوروبا بعد سويسرا، وفيها كثير من سلاسل الجبال التي يصل ارتفاعها إلى 1600 متر.[2]

[1].حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص 265-263.
[2].نفس المرجع، ص 265.

الأسماء المختلفة للأندلس:

عرفت هذه الجزيرة في التاريخ بكثير من الاسماء والمصطلحات، ومنها: "إبياريه" نسبة إلى وادي إبراه، و "باطقة" نسبة إلى وادي بيطي، هو نهر قرطبة، ثم سميت بعد ذلك بالأندلس، [1] وأطلق الرومان عليها إسم " Haspania" واشتق منها الإسم العربي "إشبانيا" أو "إصبانيا" وأطلق عليها في القرون الوسطى "Espana"، وجاءت منها الكلمة الإنكليزية "Spain".[2]

أما العرب فأطلقوا عليها إسم "الأندلس" من "واندالوس" نسبة إلى إسم القبال "الوندال" أو "الفندال" (Vandalucia) الجرمانية الهمجية الوحشية (Vandalism) بالإنجليزية، وهي القبائل جاءت من شمال اسكندنافيا من بلاد السويد والدنمارك والنرويج وغيرها، وهجمت على الأندلس وعاشت فيها فترة من الزمن، ومع الأيام حرّف الإسم إلى أندوليسيا فأندلس،[3] ظل هذا الإسم ملتصقا بها طوال الحكم الإسلامي، ولكن بعد سقوط غرناطة عام 897هـ/1492م أطلق الإسبان في الوقت الحاضر إسم "أندولوشيا" (Andalucia) على الولايات الجنوبية الإسبانية وهي المنطقة التي تحتوي على محافظات غرناطة وقرطبة وإشبيلية ومالقة والمرية وقارش والمبة وجبان.[4] التي فيها تاريخ مجيد للمسلمين.

وصفت المصادر والمراجع جمال هذه الجزيرة وبهاءها بقولها، فهي "شامية في طيبها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكاءها، أحوازية في معظم جبايتها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها".[5]

---

[1].أبو عبد الله عبد العزيز البكري: جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك، ص257.
[2].عبد الواحد ذنون طه: الفتح والإستقرار العربي والإسلامي في شمال أفريقيا والأندلس، ص68.
[3].دكتور راغب السرجاني: قصة الأندلس، الجزء الأول، ص15.
[4].رضا هادي عباس: الأندلس رحلة في التاريخ والحضارة، ص21-11.
[5].أبوعبدالله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ص3.

قصة فتح الأندلس:

إن فكرة فتح الجزيرة الإيبيرية هي فكرة إسلامية تماما لنشر الدين وإعلاء كلمة الله في الأراضي الأوروبية وبلاد ماوراء البحار، وإخراج عباد الله من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن جور الأديان إلى سعة الإسلام، وكذلك لحماية حدود بلاد المسلمين من أعداءهم البيزنطين وإبعاد مخاطرهم عنهم، يرجع بعض المؤرخين تاريخ هذه الفكرة إلى أيام الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضى الله عنه، [1] كما كان القائد العظيم عقبة بن نافع الفهري تمنى في اجتياح المضيق إلى أسبانيا، [2] ولكن هذا العمل المجيد ما تم بسبب كثير من العراقيل الموجودة في سبيله، فلذلك اتجه المسلون أولا إلى فتح المغرب العربي الذي دام حوالي سبعين سنة ما بين مد وجزر ونصر وهزيمة بداية ببعث استطلاعي قام به عقبة بن نافع في ذي القعدة سنة 21هـ/ستمبر 642م، وانتهت بحملة موسى بن نصير الأخيرة الموفقة التي تم فيها خضوع المغرب الأقصى سنة 90هـ/708م، وقد لقي العرب في هذا الجهاد الطويل من الجهد والخسائر مالم يلقوا مثله في فتح إقليم أخرى حتى شمالي الهند نفسه.[3]

ولما تم فتح المغرب العربي وخضوعه أمام الخلافة الأموية المركزية، واستتبّ أمر المسلمين فيه، إنهم توجهوا نحو الأندلس، وقد ساعدهم في ذلك حماستهم الدينية والدعوية، والأحوال المضطربة الحرجة وسيادة الفساد الإجتماعي والسياسي والتأخر الإقتصادي وعدم الاستقرار والظلم والجور العسف والاستبداد هناك، وكذلك الدعوة من جوليان حاكم سبتة المسلمين إلى الحرب ضد لذريق الذي كان اغتصب العرش من

---

[1].ومن هولاء المؤرخين محمد جرير الطبري في "تاريخ الرسل والملوك"، ج4، ص 2817-2814، وإبن الأثير في "الكامل في التاريخ" ج3، ص 93، وإبن عذاري في "البيان المغرب" ج2، ص 4، والمقري في "نفح الطيب" ج1، ص 204، وابن كثير في "البداية والنهاية" ج7، ص 152، وعبد العزيز الثعالبي في "تاريخ غزوات العرب" ص368-367، وشكيب أرسلان في "الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية" وغيرهم.

[2].ابن عذاري: البيا المغرب، ج1، ص 26، وفجر الأندلس لحسين مؤنس، ص54، ودولة ا لإسلام في الأندلس لعبد الله عنان، ج1، ص 20.

[3].حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص39.

غيطشة، ومارس كثيرا من الظلم والعدوان ضد عامة الناس،[1] تشير بعض المصادر إلى أن جوليان توجه بنفسه إلى طارق بن زياد الذي كان مقيما في طنجة مع الجيش الإسلامي المكون من البربر والعرب، وعرض عليه المساعدة في تسهيل مهمة دخول العرب للأندلس.[2] فكتب طارق بن زياد إلى واليه موسي بن نصير المقيم في القيروان وأبلغه ما كان من أمر جوليان، [3] فرحب موسى بن نصير بالفكرة واستأذن من الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك لإقدام الجيش، فجاء رد الخليفة بالموافقة على الفتح وعلى أن يسبق القيام بهذه المهمة اختبارها بالسرايا أولا خوفا على أرواح المسلمين.[4]

بعد الموافقة مع الخليفة بعث موسى بن نصير سرية استكشافية عام 91هـ/710م إلى جنوب إسبانيا مكونة من أربعمائة من المشاة ومائة فارس على قيادة طريف بن مالك المعافري لدراسة الوضع قبل عبور الجيش الإسلامي إليها، فنزل في مكان يقال له جزيرة الأندلس، إنه قام بمهمته خير قيام مع حملات عسكرية خفيفة، ثم عاد إلى طنجة بغنائم كثيرة ومعلومات مهمة مطمئنة مشجعة، وشرح لطارق كل ما رأه هناك.[5]

إن هذه الحملة الإستكشافية الإستطلاعية والمعلومات الحاصلة منها شجعت موسى بن نصير بكثير، فرتب الخطط اللازمة لعملية الفتح عسكريا حسبت هذه المعلومات التي قدمها طريف، وجهز جيشا من سبعة آلاف جندي من المسلمين أكثرهم من البربر.[6] على قيادة القائد الحاذق طارق بن زياد الذي عبر الأندلس من ميناء سبتة سنة 92هـ/711م.[7] ونزل مع جنوده على جبل منيع عرف بعد ذلك بجبل طارق، [8] إنه

[1].الرقيق القيرواني: تاريخ أفريقية والمغرب، ص73.
[2].إبن عبد الحكيم: فتوح مصر وأخبارها، ص205.
[3].ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص134.
[4].الحميري: الروض المعطار، ص3، والمقري: نفح الطيب، ج1، ص 237.
[5].عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج1، ص 40، وأيضا فجر الأندلس لحسين مؤنس، ص67.
[6].المقري: نفح الطيب، ج1، ص 231، وأيضا الروض المعطار للحميري، ص9.
[7].إبن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص222.
[8].ابن خلقان: وفيات الأعيان، ج4، ص 403، وأيضا ابن الكردبوس: الإكتفاء في أخبار الخلفاء، ص46.

استطاع أن يقضي على الحامية القوطية هناك والحاميات الأخرى الموجوده في طريقه، وهكذا إنه أمن الظهر ومهد الطريق للحملة الكبرى على لذريق، ولكن لذريق في جانب، لما علم أمر الجيش الإسلامي جن جنونه وتقدم بجيش خفيف، وصفته المصادر بأنه بلغ المائة ألف محارب.[1] علم طارق عن هذا الجيش الكبير بالنسبة لهم، فاستنصر بموسى، فأعانه بخمسة آلاف جندي على قيادة طريف بن مالك، فبلغ عدد جيشهم إثني عشر مجاهد أمام مائة ألف محارب.[2] لقي الجيشان في 28 من شهر رمضان سنة 92هـ/19 من يوليو سنة 711م بوادي برباط، ودامت المعركة طيلة ثمانية أيام متوالية، وانتهت بنصر مؤزز للمسلمين وتشتت جيوش القوط وقتل الملك لذريق إذ لم يعثر له على أثر.[3]

ثم دخل موسى بن نصير الأندلس للمساهمة في هذا الجهاد سنة 93هـ/711م على رأس قوة من ثمانية عشر ألف مقاتل عربي، [4] وبعد الحملات الكثيرة والفتوح المبينة فيها تم إلحاق الأندلس إلى الدولة العربية المركزية، ثم توجه موسى مع طارق بأمر من الملك الوليد بعد تعيينه إبنه عبد العزيز واليا على الأندلس بأمر.[5]

التاريخ الإسلامي للأندلس:

يمكن لنا أن نقسم التاريخ الإسلامي السياسي للأندلس إلى عصور مختلفة، منها: عصر الفتوح وعصر الولاة ثم تاريخ الدولة الأموية ثم عصر دول الطوائف ثم عصر المرابطين والموحدين وعصر الإنهيار.

[1].مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص8.
[2].المقري: نفح الطيب، ج1، ص 232.
[3].راغب السرجاني: قصة الأندلس، ص54، وأيضا ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص32.
[4].ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص 30.
[5].ابن خلدون: العبر، ج4، ص 255.

قد فرغنا من ذكر عصر الفتوح الذي دام قرابة أربعة أعوام بداية من حملة استكشافية استطلاعية عام 91هـ/710م على قيادة طريف بن مالك إلى أن استتبّ أمر المسلمين في البلد عام 95هـ/714م، وبنفس التاريخ يبدأ عصر الولاة فيه، ويدوم إلى سنة 138هـ/755م، أي مدة إثنين وأربعين سنة، [1] يطلق عصر الولاة على حسب قول الدكتور حسين مؤنس في التاريخ الإسلامي على المدة الواقعة بين الفتح الإسلامي للبلد إلى قيام أول دولة متصلة فيه، أيا كانت صورة هذا الإستقلال. [2] أما هذا العصر في الأندلس كان دام إثنين وأربعين سنة، كان يتولى حكمها رجل يتبع الحاكم العام للمسلمين، وهو الخليفة الأموي في دمشق في ذلك الوقت، وكان أول والي فيها هو عبد العزيز بن موسى بن نصير.[3]

يمكن أن نقسم عصر الولاية في الأندلس بحسب نظام الحكم وطريقة الإدارة إلى قسمين، أولهما: يتميز بإزدهار الدعوة الإسلامية والجهاد والفتح وتأصيل الإسلام فيها، وهو يمتد من بداية عصر الولاة من عام 95هـ/714م إلى عام 123هـ/741م أي سبعة وعشرين عاما، وثانيهما: يتميز بالضعف والإنهيار والمكائد والمؤامرات الإدارية ورجوع التقاليد الجاهلية والفروق الطبقية والقبلية إلى المجمع الإسلامي، ويستمر هذا العصر من سنة 123هـ/741م إلى سنة 138هـ/755م أي مدة خمسة عشر عاما. [4] والسبب في هذه القوة والضعف كما أظن يرجع بكثير إلى قوة الدولة المركزية وضعفها في المشرق.

نتيجة لهذه الأوضاع الحرجة الخطرة كاد أن ينتهي دور الإسلام من الأندلس لولا حدثت معجزة إلهية في صورة عبد الرحمن بن معاوية الداخل الذي دخل الأندلس في

[1].الدكتور راغب السرجاني: قصة الأندلس، ص85.
[2].الدكتور حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص65.
[3].الدكتور راغب السرجاني: قصة الأندلس، ص85.
[4].نفس المصدر، ص86.

شهر ذي الحجة عام 138هـ/756م هاربا من معاقبة العباسيين في دمشق، [1] إنه جمع الأندلس تحت رأيته، وبه بدأ عهد الإمارة الأموية المستقلة فيها، الذي امتد من سنة 138هـ/756م إلى سنة 316هـ/928م، وسميت هذه الدولة بالإمارة لأنها أصبحت منفصلة عن الخلافة الإسلامية، سواء كانت في عصر الخلافة العباسية أو ما تلاها بعد ذلك من العصور إلى آخر عهود الأندلس، ولهذه الإمارة كثير من الأيادي البيضاء على الإسلام في الأندلس.[2]

وتلت هذه الفترة فترة جديدة للإمارة الأموية في الأندلس التي امتدت من سنة 316هـ/928م إلى سنة 400هـ/1010 أي نحو أربع وثمانين سنة، وهي تعد عهد الخلافة الأموية الثانية استكمالا لعهد الإمارة الأموية الأولى مع فروق في شكليات الحكم وقوة السيطرة والسلطان، وأشهر الحكام المسلمين الذين حكموا في هذه الفترة عبد الرحمن ناصر وإبنه المستنصر.[3]

طلعت شمس القرن الخامس الهجري في الأندلس مع كثير من الفتن والويلات والثورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، إن الدولة الأموية كانت على وشك الضعف والانهيار منذ تولية الخلاقة صبي صغير، وهو هشام الثاني المؤيد الذي لم يتجاوز عمره يوم مبايعته العاشرة، فقد تسلط عليه حاجبه المنصور محمد بن أبي عامر، وبعده إبنه عبد الملك المظفر، ثم أخوه عبدالرحمن شنجول، وكل من هولاء استغلوا الخلافة ولم يتركوا لخلفاءها إلا سلطة رسمية رمزية، كان هذا الأمر في جانب، وفي جانب آخر سلسلة خلفاء الأمويين الضعفاء الذين تعاقبوا على كرسي الخلافة، وقلة حنكتهم وخبرتهم السياسية، وميلهم إلى اللهو واللعب والعبث، وانفاقهم أموال الشعب في بناء القصور

[1].نفس المصدر، ص 131، و 138.
[2].نفس المصدر، ص 150.
[3].نفس المصدر، ص 205.

الفخمة والمآكل والمشارب والملابس، ثم ظلمهم الكثيرين منهم ومن ولاتهم الرعية، ثم تلك الأحقاد الطائفية التي نشأت من النعرة القبلية والتي أدت إلى تعصب العرب ضد البربر، وتعصب هولاء ضد أولئك، والقيس العربي ضد المضري العربي، وقيام الحروب الأهلية نتيجة لذلك كله، ثم انعدام الأمن وقلة الحاجيات وغلاء المعيشة، على الرغم من غنى البلاد ووفرة المال، كل هذه الأسباب وغيرها من العوامل الأخرى أدت إلى ضعف الدولة الأموية ضعفا خطيرا، [1] حتى انتهت بعد خلع هشام المعتد بالله في 2 ذي الحجة عام 422هـ/1030م،[2] وحلت بالأندلس كارثة عظمى، وشبت الفتن والثورات في جميع أرجاءها، وتوزعت إلى أمارات ومماليك ودويلات متطاحنة كثيرة، وانهمكت القوى المجمعة وتفرق الشمل وتشتت الجمع.

قال ابن خلدون في هذا الصدد: "صار ملكها في طوائف من الموالي والوزراء وأعياض الخلافة وكبار العرب والبربر، واقتسموا خططها، وقام كل واحد بأمر ناحية منها، وتغلب بعض على بعض، واستقل أخيرا بأمرها ملوك استفحل شأنهم".[3]

وقال ابن عذاري: "فمن هذا التاريخ (422هـ/1030م) كثرت الفتنة، وتمادى وانتزى كل أحد في موضعه، واستبد رؤساء الأندلس وثوارها فيما بين أيديهم من البلاد والمعاقل، بغى بعضهم على بعض، ولله الحول والقوة".[4]

إن الدويلات والمماليك التي قامت على خراب الدولة الأموية بلغت في العدد إلى أكثر من عشرين دولة ومملكة، عرف أصحابها بملوك الطوائف، ومن تلك المماليك المشهورة: مملكة بني هود بسرقسطة ومملكة بني جهور بقرطبة ومملكة بني ذي النون

---

[1].محمد الأمين محمد ومحمد علي الرحماني: المفيد في تاريخ المغرب، ص105، والأستاذ الدكتور محمد عبده حتاملة: الأندلس-التاريخ والحضارة والمحنة، ص 438.

[2].إبن ألأثير: الكامل في التاريخ، ج7، ص 290، وابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص 145، حيث ذكر أن خلعه تم في الثاني عشر من ذي الحجة.

[3].ابن خلدون: التاريخ، ج4، ص 200، وأيضا المقري: نفح الطيب، ج1، ص 438.

[4].ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص 152.

بطليطلة ومملكة بني الأفطس ببطليوس ومملكة بني عباد بإشبيلية ومملكة ابن أبي عامر بلنسية ومملكة بني زيري بغرناطة، [1] وبسبب هذا التفرق والتشتت السياسي بدأت أطماع العدو الكافر تمتد إلى دول المسلمين، وبدأت محاولاته للقبض والسيطرة عليها، وشرع النصارى يشنون غاراتهم على أراضي المسلمين، حتى سقطت نتيجة لذلك كثير من بقاعهم في أيديهم، واضطر كثير من أمراء المسلمين إلى دفع الجزية لهم، وفي ذلك الوقت ارتفعت في الأندلس دعوة لجمع شمل المسلمين، واجتمع ملوك الطوائف وأمراءهم بأنفسهم للتذاكر في علاج الوقت الخطير واتفقوا على استدعاء أمير المؤمنين العظيم يوسف بن تاشقين للقدوم إلى الأندلس، وتخليصهم من براثن العدو [2] فجاء يوسف بن تاشقين إلى الأندلس وحقق فتحا عظيما ونصرا مبينا على أعداء الإسلام والمسلمين، وجمع شملهم.[3]

توارث المرابطون المؤحدون الحكم في المغرب وفي الإندلس، ومنهم المرينيون، [4] ولكن الإنتشار الداخلي وفساد النظام الإداري فيها، وضعف الدولة في المغرب وعدم قدرتها على تمديد يد العون والمساعدة إلى الأندلس لجمع قواتها المنتشرة وتوحيد أحزابها وألواءها المتفرقة تحت لواء واحد، قد أدى الأمر إلى تدهور حال المسلمين كثيرا في كل بلاد المغرب والأندلس على السواء، وما بقي في الأندلس رجل يقوم أمام طموحات الأعداء بعد هزيمة عقاب حيث قتل آلاف من المسلمين بسيوف النصارى. [5]وبدأت تسقط مدينة تلو مدينة بعدها، حتى سقطت في سنة 633هـ/1236م حاضرة الإسلام في الأندلس وصاحبة ثلاثة آلاف مسجد وثلاثة عشر ألف دار وعاصمة الخلافة لأكثر من

[1].الأستاذ والدكتور محمد عبده حتاملة: الأندلس-التاريخ والحضارة والمحنة، ص438.
[2].محمد الأمين محمد ومحمد علي الرحماني: المفيد في تاريخ المغرب، ص122.
[3].المرجع نفسه، ص 127.
[4].محمد الأمين محمد ومحمد علي الرحماني: المفيد في تاريخ المغرب، ص136.
[5].شوقي أبو خليل: العقاب، ص 45. وكذلك تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والمؤحدين ليوسف أشباح، ج2، ص 119.

خمسمأية عام، التي أفاضت على العالم أجمع خيرا وبركة وعلما ونورا، ألا وهي مدينة قرطبة.[1] ولم يبق في الأندلس إلا ولايتان فقط، ولاية غرناطة في الجنوب الشرقي من البلاد حيث استقل بنو الأحمر عام 635هـ/1237م، وولاية إشبيلية في الجنوب الغربي، وهما تمثلان حوالي ربع بلاد الأندلس. [2] ثم سقطت الإشبيلية في السابع والعشرين من رمضان سنة 646هـ/1248م بعد سبعة عشر شهرا كاملة من الحصار الشديد بأيدي المسلمين ومعاونتهم للنصارى.[3] وظلت مدينة غرناطة طيلة ما يقرب من مائتي عام في نفس الحال كما هو عليه، ولكن حصار النصاري كان يضيق يوما بعد يوم حتى سقط آخر معاقل المسلمين في الأندلس سنة 897هـ/1492م بعد حصار طويل وحروب دامية، وبه انتهى دور مجد الإسلام وعز العرب في تلك الديار العزيزة والفردوس المفقود.[4]

نتائج الفتح الإسلامي:

فقد أكسب الفتح الإسلامي للأندلس الخيرات الكثيرة والأيام السعيدة، وبه فتح باب جديد للجزيرة، وبدأ تطور عظيم في حياتها العامة وفي نظمها الإجتماعية، إنها كانت تشكو بالإضطرابات السياسية والإجتماعية والتأخر الإقتصادي وعدم الاستقرار والظلم والجور والكبت والقهر والرقة والعبودية، وكثير من الناس يعيشون في شقاء لسوء الأحوال المعايشة وسياسة الاستغلال، وكان الشعب يستغل لحساب الطبقة الحاكمة والمترفة وأصحاب المصالح، ولكن الإسلام جاء ليقضى على ذلك كله، وليحمل نعم العدل والحرية والمساواة إلى الناس جميعا، وليعطي كل ذي حق حقه، ويقمع الظلم والجور

[1].الدكتور راغب السرجاني: قصة الأندلس، ص626-625.
[2].المقري: نفح الطيب، ج1، ص 206.
[3].ابن عذاري: البيان المغرب، قسم المؤحدين، ص384. وأيضا ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج4، ص 171.
[4].عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، ص529.

وعناصر الشر والفساد والفوضى، وينظم إدارة البلاد ويبثوا فيها روحا جديدا من العزم والأمل، فنشطت الزراعة والصناعة والتجارة وهبت ريح الرخاء، وتنفس الشعب الصعداء، وخف عن كاهله ما كان ينؤ به من الأعباء والمغارم، وأمن الناس على حياتهم وحرياتهم وأموالهم، ونالوا الحرية في دياناتهم وقوانينهم وتقاليدهم واعتقاداتهم، والخضوع لقضائهم وقضاتهم، وهكذا ساد الأمن والسلام والتسامح الديني والتبادل الثقافي واللغوي في طول البلاد.[1]

كما شاهدت الأندلس إسهامات واسعة متعددة وتطورات هائلة في كثير من مجالات العلم والفن والأدب، كما أنبتت أرض الأندلس مفكرين متميزين وشعراء أفذاذ وعلماء كبار وأدباء عمالقة عنوا بدراسة علوم القرآن والحديث والفقه والقضاء والتاريخ والسيرة والجغرافية، وألفوا في علوم الطب والحساب والهندسة والفلك والكيمياء والمنطق والفلسفة والموسيقي، بحيث لم يتركوا حقلا من حقول العلم والمعرفة إلا طرقوها، [2] إنهم أنشأوا المدارس والمكتبات في كل ناحية، وترجموا الكتب المختلفة، ودرسوا العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية والكيمياوية والطبية بنجاح، ولم يكن نشاطهم في الصناعة والتجارة أقل من ذلك، فكانوا يصدرون منتجات المناجم ومعامل الأسلحة و مصانع النسائج والجلود والسكر، وبرعوا في الزراعة براعتهم في العلوم والصناعات، وأدخلوا في حقول الأندلس زراعة قصب السكر والأرز والقطن والموز.[3]

وكذلك اهتم الأندلسيون منذ البداية باللغة وآدابها وعلومها وفنونها حفظا على القرآن الكريم والحديث النبوي والتراث العربي من أجل فهمه فهما صحيحا، فازدهرت الحركة اللغوية في الأندلس إزدهارا ملحوظا، واستطاعت هذه الأرض المفقودة من خلالها

[1].عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج1، ص 62.
[2].كريم عجيل حسين: الحياة العلمية في مدينة بلنسية الإسلامية، لم يذكر إسم الناشر ولا سنة النشر، ص263.
[3].لوبون: حضارة العرب، ص274.

أن تشارك في النهضة اللغوية المشرقية، وتساير معها قدما بقدم وحذوا بحذو، وأن يكون لها نصيب وافر واضح في الجهود العلمية عامة، فبرز من علماءها وأدباءها جماعة ممن وفقت مؤلفاتهم على قدم المساواة مع المؤلفات المشرقية.

ومن العلماء والكتاب المشاهير الذين برزوا في الأندلس طوال العهد الإسلامي ابن حزم وابن رشد وابن بطوطة والإدريسي وابن القوطية والزبيدي وابن سيده وابن عبد البر ابو علي القالي ابن السيد والصاعد والرباحي وابن عبد البر وأبوحيان وابن خطيب والإمام الشاطبي وابن العربي والطرطوشي ابن وافد وابن زيدون وابن اللبانة وابن عمار الوزير الفارس ويونس بن عبدالله والحميدي وابن باجة وابن طفيل ومحمد الغافقي وابن سعدون الإزدي والحافظ القرطبي وأبو جعفر القرطبي والزهراوي والجراح وابن الفرضي وأبو القاسم المجريطي وابن جلجل وأحمد بن عبدالله بن ذكوان ومحمد بن عبدالله الليثي وحسان بن عبدالله بن حسان وغيرهم الكثير الذين تركوا وجالوا في كل مجال، ونهلوا من كل منهل، وتركوا لنا ثروة عظيمة في كل حقل من الحقول الدينية والإسلامية وفي كل فن من الفنون الأدبية والفكرية والتاريخية وغير ذلك.

الباب الثانـي

دراسة الرواية "ثلاثية غرناطة" الموضوعية والفنية

- الفصل الأول: القضايا السياسية التي عالجتها رضوى عاشور في "ثلاثية غرناطة"
- الفصل الثاني: القضايا الإجتماعية في رواية "ثلاثية غرناطة"
- الفصل الثالث: تاريخ الأندلس من منظور ثلاثية غرناطه

الباب الثاني

القضايا الاجتماعية والسياسية التى تعالجها "ثلاثية غرناطة"

إن رواية "ثلاثية غرناطة" تتألف من ثلاث روايات للكاتبة والأديبة والأستاذة الجامعية المصرية رضوى عاشور، وهي على التوالي: غرناطة، ومريمة، والرحيل، طبع جزءها الأول تحت إسم "غرناطة" عام 1994م، وفازت بجائزة معرض القاهرة لأفضل رواية لذلك العام، ثم طبع في العام الثاني الجزءان، الثاني والثالث تحت إسم "مريمة" والرحيل" اللذان حصلا مع "غرناطة" على الجائزة الأولى لكتاب المرأة العربية في نفس العام، ثم جمعت هذه الأجزاء الثلاثة تحت إسم "ثلاثية غرناطة" في 500 صفحة من الحجم المتوسط ونشرت من المؤسسة العربية للنشر عام 1998م، وفي عام 2001م نشرت دار الشروق الطبعة الثالثة، ومن ذلك الحين حتى اليوم بلغت طبعتها إلى عدة طبعات ونالت شهرة فائقة ومكانة مرموقة في أوساط القراء، حتى عدت من أهم الروايات وأعلاها فنيا وموضوعيا في الأدب العربي الحديث.

إن هذه الرواية ليست قصة حب بين شاب وفتاة على أعتاب غرناطة أو على ضفاف نهر شنيل عند قصر الحمراء العظيم، ليست قصة سيخلدها التاريخ أشبه بتلك القصص التي نسمعها عن روميو وجوليت عنترة وعبلة أو قيس وليلى، بل إنها قصة تختلف تماما عن القصص التي نسمعها عن الأجداد ونقرأها في الكتب، فهي تحكي عن قصة الحب والعشق فعلا ولكن عن عشق الشعب لغرناطة والأندلس، تحكي عن قصة الجنة المفقودة ضاعها سلفنا بيدي القشتاليين، بقصورها وطلالها ومساجدها الشاهقة السامخة، وحماماتها وأنهارها وشوارعها النقية الشافية، ونخيلها وحدائقها وبساتينها المثمرة الباسقة، وبوراقيها وبأطفالها

وبنساءها السمراوات وشبابها الشجعان، فعدت ساكنة صامتة، لاحراك فيها ولا روح، لا بشر فيها ولا دواب، ولا طيور، وأبوابها مغلفة كأبواب القبور. وهي تحكي عن التاريخ الذي خلفناه ونسيناه، قام فيه شعب البيازين المسلم ضد الظالمين المستبدين المغتصبين للحفاظ على الهوية الإسلامية والثقافة العربية، صلوا وصاموا واعتكفوا وأقاموا صلاة العيد سرا، وطبخوا الكعك في آخر الليل، وتزوجوا على الطريقة الإسلامية، وجاهدوا للصيانة على لغتهم وكتبهم الدينية والعربية خلال إختفاءها في الكهوف والصندوق وتحت الأرض والبيوت المهجرة، إنهم واجهوا في هذاالسبيل الكثير من العراقيل والصعوبات والإضطهادات ولكنهم لم يتخلوا عن ذروة توحيد الله أو عن حب الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يهنوا ولم يضعفوا بل قاموا في وجه الاغتصاب والاحتلال، قدمت رضوى عاشور فيها على منوال ماركيز في "مأية عام من العزلة" ونجيب محفوظ في "الحرافيش" قصة رحلة مع عائلة أي جعفر المنصوري في الأندلس المفقود، رحلة الحزن والأسى، رحلة القنوط واليأس، رحلة الألم والإضطهاد، رحلة التعذيب والتنكيل، التي تبتدأ من عام 1491م أي العام الذي سقطت فيه غرناطة بإعلان المعاهدة التي تنازل بموجبها أبوعبدالله محمد الصغير آخر ملوك غرناطة عن ملكه لملكي قشتالة وأراجون، وتنتهي إلى عام 1609م بإعلان الحكم العام بترحيل المسلمين من الأندلس، وإبعادهم منها تماما، مرورا بكثير من الويلات والنكبات والنكسات والحصار السياسي والإجتماعي والديني والثقافي وقصة الذل والهوان والظلم والعدوان والنيل من الشرف والكرامة.

نستطيع أن نرى بين طياتها الكثير من القضايا الإجتماعية والسياسية والثقافية والجوانب الإنسانية المتعددة التي عاشها الأندلسيون العرب عقب سقوط أوطانهم، كما أبدعت الروائية في صياغة الحالة النفسية للأندلسيين المرابطين في بلادهم إثر ما عانوه من ظلم

وقهر وكبت وطمس للهوية الإسلامية، وحرمان من ممارسة أبسط حقوقهم الإنسانية، وتناول التفاصيل اليومية والحياة العادية من ولادة وزواج ووفاة وسجن واغتراب، كما نجد فيها قصة الحب والعشق والجنس بوضوح وشفافية، وكل ذلك في أسلوب فريد رائع ولغة بليغة فصيحة.

فنذكر هذا كله في هذا الباب، ونستعرض الموضوعات السياسية والإجتماعية التي تناولت رضوى عاشور في هذه الرواية، والقضايا التي عالجتها، والأساليب الأدبية والفنية الذي مارستها فيها، فنرى مناسبا أن أتقدم أولا بذكر القضايا السياسية من الكتاب.

الفصل الأول

القضايا السياسية التي عالجتها رضوى عاشور في "ثلاثية غرناطة"

الرواية تبتدأ بذلك الحلم الذي يرى فيه أبو جعفر إمرأة عارية تتحدر في إتجاهه من أعلى الشارع كأنها تقصده، إقربت المرأة فأكثر فأيقن أنها لم تكن ماجنة ولا مخمورة، كانت صبية بالغة الحسن ميادة القد، ثدياها كأحقاق العاج، وشعرها الأسود مرسل يغطي كتفيها، وعيناها الواسعتان يزيدهما الحزن اتساعا في وجه شديد الشحوب، وهي تمضي في الطريق دون أن تأبه الأسئلة المتلاحقة لها من هي؟ وما إسمها؟ ومن تكون؟ وأين دارها؟ وإلى أين تذهب؟ إنها استمرت في المشي حتى ابتعلها الطريق المنحدر واختفت عن العنون.[1]

إن هذا الحلم إن يشير إلى شيئ فهو يشير إلى أعماق التاريخ السياسي للأمراء والحكام المسلمين في الأندلس كما أظن، ظل الإسلام في تطوره وإزدهاره، وظل البلد في رغده ورخاءه، وما كانت سياسة، وهولاء الأمراء والحكام ظلوا في طريقهم الصحيح المستقيم، حتى تم عمل تأصيل الدين والعقيدة والأفكار والنظريات الإسلامية الصحيحة الصافية، ودخل الناس أفواجا في حظيرته، وتعلموا اللغة والأدب العربي، وعملوا لرقيه وإزدهاره، وبذلوا في سبيله كل غال ورخيص،[2] ثم نتيجة للحكم الصحيح انتعشت التجارة والزراعة والصناعة، وتعددت العلوم والفنون، وتطورت اللغة والأدب، وهبت ريح الرخاء والسلام والأمن، وتنفس الشعب الصعداء، وأصبحت المدن الأندلسية تضاهي المدن المشرقية في العلم والأدب والسياسة والثقافة والحضارة، وتوجه إليها كثير من الناس والعلماء والمفكرون واللغويون من مختلف الجهات لينهلوا من مناهلها العذبة ويشربوا من أنهارها الشافية، ويعيشوا في ظلها

[1].رضوى عاشور: ثلاثية، ص8.
[2].الدكتور راغب السرجاني: قصة الأندلس، ص89.

الآمن،[1] وهكذا وصل البلد إلى أوج الحسن والجمال والبهاء والكمال كحسن المرأة وجمالها التي رأها أبوجعفر في حلمه، ولكن حينما فسدت سياسة الحكام والأمراء المسلمين، وتعددت أحزابهم وفرقهم، وتشتت شملهم وجمعهم في القرون الأخيرة من العهد الأموي، وفي نهاية العهد المؤحدي وبداية العهد المريني، بدأوا التعاون مع الأعداء من اليهود والنصارى على أخوتهم المسلمين، وغرقوا في الملذات والرغائب والهوى والجنس والشهوات، ودبت إليهم سياسة الحقد والحسد وعادات الجاهلية والتقاليد القبلية بدأ يزول حسن هذه البلاد وجمالها حتى تعرت من كل عزها ومجدها وشرفها، وانحدرت بعد علوها إلى أن اختفت من وجه الأرض تماما، كما اختفت تلك المرأة العارية التي رأها أبو جعفر في حلمه، ونسيت إسمها ودينها وعنوان دارها، وضلت الطريق والهدف الذي كان من هدفها، كما أن المرأة نسيت إسمها ودينها ودارها والغاية التي مشيت لأجلها.

كما تكرر وتأكد هذا المفهوم في مكان آخر من الرواية "بدأ لنعيم أن العودة تداوي ألمه فعاد، ولكنه لم يجد في غرناطة غرناطة، ولا البيازين في البيازين، وصل إلى المدينة بعد عسر، ومشى حذاء حدرّه، يعرف مجراه وماءه وقناطره، والحمراء المشرفة عليه، ولا يعرف هذه القصور الجديدة ولا تلك الكنائس المشيدة على ضفته، هل ضيع الطريق؟ سأل، لم يكن ضيعه بل حفظ ذاكرة مكان تبدل، حتى الدار غاب من فيها سوى حسن الذي كان بليدا فصار أكثر بلادة".[2]

وبسبب هذه السياسة الفاشلة الضعيفة قد آل الأمر إلى الأعداء الذين سلكوا سياسة الظلم والكبت والقهر والاضطهاد السياسي والإجتماعي والثقافي، وإمحاء كل ما يتعلق برابط بالإسلام والثقافة الإسلامية تحت دليل بأن الشر يقتلع من جذوره وإلا ينبت من جديد، إنهم

[1].الزبيدي: طبقات الزبيدي، ص 282.
[2].رضوى عاشور: ثلاثية، ص 260.

أجبروا المسلمين على التنصير أو العيش تحت الخناق السياسي والإجتماعي والثقافي والإقتصادي أو الهجرة من البلاد، منعوا استخدام اللغة العربية والألقاب العربية والملابس العربية والحلى العربية وما بقى من حمامات عربية، تجمع كافة الكتب العربية للتفحص ثم يعاد منها فقط ما لا خطورة فيه، وكذلك صدر حكم منع حمل السلاح للمسلمين، وترك أبواب الدار مفتوحة أيام الجمع والأحاد والمواسم والأعياد للتأكيد من مراعاتهم لشعائر دون شعائر، وأن الولادة لا يشرف عليها قابلات من نساء العرب، وعلى الكبار أن يلتزموا بكل طقوس من دينهم الجديد، أما الصغار فيعالج جهلهم بإنشاء مدارس إرسالية لتربيتهم على غير دين آباءهم.[1]

كذلك إنهم هدموا المساجد أو حولوها إلى الكنائس تحت هذه السياسة الدنيئة الحاقدة الانحيازية المتعصبة، كما تقول الرواية "لم يكن المؤذن قد أذن لصلاة الفجر بعد، ولا ديك الجارة صاح صياحة المتكرر". [2] وداهموا المساجد والمدارس والمكتبات والخانات وقبضوا على ما فيها الكتب العلمية والخزائن القيمة، وأخذوا إلى مكان غير معلوم أو حرقوها أمام الناس، "تابعوا تساقط المصاحف الكبيرة والمصاحف الصغيرة تنفصل عنها أغلفتها الجلدية المزينة بالزخارف والخطوط، تابعوا المخطوطات المفروطة، قديمها وجديدها، والأوراق المفردة تحمل الكلام نفسه منثورا ومتتابعا سطرا بعد سطر أو منظوما في كل شطر شطرتان". [3]

كذلك تحكي الرواية عن إحراق الكتب في مكان آخر بشكل موجع ومحزن "كان بعض العسكر قد تفرقوا بين الكتب وراحوا يوقدون النار فيها ثم ينسحبون ركضا لتلاقي اللهب الذي أخذ يمتد أفقيا ويعلو ويتصاعد، تلتهم النار الكتب، تفحم أطرافها، تجفف أوراقها، تلتف الورقة حول نفسها كأنما تدور النار عنها ولا جدوى، فالنار تصيب وتأكل وتلتهم وتأتي عليها سطرا

[1].رضوى عاشور: ثلاثية، ص197.
[2].نفس المصدر، ص21.
[3].نفس المصدر، ص50.

سطرا وورقة ورقة وكتابا بعد كتاب، نار مؤقدة تؤجج في الساحة، تستعر وتضطرم، تلهب العيون وتختق بدخانها الصدور".[1]

إنهم ما تركوا أية فرصة إلا أخذوها بكلا اليدين لتذليل المسلمين وإهانتهم، [2] تتنوع ألوان التذليل وتختلف ملامح الإهانة كل مرة، مرة باللطم والركض والضرب، [3] ومرة أخرى باعتراضات النساء العرب والنيل من شرفها وكرامتها، ومرة ثالثة بالقبض على المسلمين والمسلمات تحت دليل كاف غير تهم كاذبة، ويحكم عليهم بالسجن أوالتعذيب أوالتغريم بمكافأة بالغة باهظة دون تحقيق وتفتيش، ثم يناديهم بكلب عربي ، كما حبس والد مريمة البطلة الرئيسية للجزء الثاني من الثلاثية إبراهيم وأمها أي أم مريمة وشقيقاها وأخذوا إلى مكان غير معلوم لمدة طويلة.[4] وكما تم إلقاء القبض على سليمة بنت جعفر بتهمة ممارسة السحر والشعوذة وقراءة الكتب العربية بدون أي تحقيق وحكم عليها بالموت حرقا. [5] وعد فتح الحمامات لائقا لأشد العقوبات،[6]

ثم أصدر الملكان الكاثوليكيان أمرهما مرة ثالثة بالتنصير لكافة الأهالي ونشر المرسوم وأذيع في الناس، كان لأهل غرناطة والبيازين خياران إما إختيار النصرانية أو الترحيل، وهو الأمر "لم يكن الأمر كما قالت مريمة إسما على الورق يستبدل بإسم، بل حياة كاملة صارت كل مفرداتها تهما ومعاصي: طهور الصبية، عقد قرانهم على الشرع الواضح، زفهم على إيقاع الدفوف والأهازيج، استطلاع هلال رمضان والعيدين، الإنشاد في ليلة القدر، الصلاة والصيام، و تكفين الميت وتشيع جنازته بآيات الذكر، خضاب الحناء على أكف الصبايا

[1] .نفس المصدر، ص 51.
[2] .نفس المصدر، ص 56.
[3] .نفس المصدر، ص 56.
[4] .نفس المصدر، ص 158.
[5] .نفس المصدر، ص 245.
[6] .نفس المصدر، ص 105.

ورؤوس النساء، كلها تهم وباب السجن مفتوح للخطاة، وأكوام الحطب مكومة تنتظر شعلة وتلتهب، كأنما هي عجلة للشيطان دارت والروح لا تلاحق دوراتها المرهقة. وكذلك يحظر على المتنصرين الجدد ارتداء الملابس العربية، ويمنع أي خياط من حياكة الملابس المحظورة وعلى النساء التخلص من غطاء الرأس، لا يجوز لمتنصر جديد أن يبيع ممتلكاته لشخص من أصل عربي مثله، يحظر على كل شخص من أصل عربي بيع ممتلكاته البتة، ومن خالف الأمر صودر ماله وعوقب عقابا وخيما، يتوجب على كل عربي يمتلك كتبا أو مخطوطات في غرناطة والقرى التابعة لها أن يسلم كل ما يمتلكه وإلا عرّض نفسه للمحاكمة والسجن، ومن يثبت بعد التاريخ المحدد أن يمتلك كتابا تصادر كل ممتلكاته، يحظر امتلاك سلاح أو حمله، ويشمل المرسوم السيوف والخناجر، يحظر الإرث على الطريقة الإسلامية، فالتركة لا تقسم بل تنقل بما هو دارج في أعراف مملكة قشتالة، يحظر إيواء وحماية وإجازة المخربين من المسلمين الذين يهاجمون شواطئ المملكة من السفن التي تحملهم من عدوة المغرب، ويحظر الإتصال أو أي شكل من أشكال التعامل مع الثوار المعتصمين في رؤوس الجبال، ومن يعص الأمر عقابه الموت المؤكد، ومن يرحل من غرناطة ويعود إليها يحرم من ممتلكاته ويقبض عليه ويباع عبدا في المراد العلني".[1]

إن هذه الإقتباسات إن تدل على شيئ فهي تدل على سياسة حاقدة متعصبة انحيازية، سياسة الظلم والعدوان والقهر والكبت والاضطهاد، سياسة الحملة الشرشة على الهوية الإسلامية وكل ما يتعلق بالإسلام والثقافة العربية، سياسة البغض والحقد والحسد والضغينة، سياسة الإبعاد والإمحاء للمسلمين من البلاد تماما والقبض على ممتلكاتهم وثرواتهم الهائلة القيمة.

[1] .نفس المصدر، ص 123-122.

ولكنهم في بعض الأحيان، كانوا يسلكوا سياسة المراعاة والمداهنة خاصة تجاه النبلاء والشرفاء، كما وعد الملك فرديناند مرارا بأن هناك لا يكون تنصير المسلمين العرب إجباريا ولا الترحيل ولا قيود على تعاملاتهم مع نصارى المملكة، ولكن هذا الدفاع عن العرب ما كان إلا لمصلحتهم ومصالح مملكة أراغون، لأن أثرياء العرب كانوا قوة مالية تحتاجها المملكة، والأهم من ذلك أن غالبية أهلنا في أراغون يعملون في فلاحة إقطاعيات النبلاء وتفرض عليهم جميعا أغنياء وفقراء ضرائب أكثر مما يفرض على باقي أهل المملكة، وفي هجرة العرب كان خرابا للإقطاعيات وفي تنصيرهم تقليص لما يحصل عليه النبلاء والدولة من مال.

هذا الأمر كان في جانب، وفي جانب آخر كانت سياسة المسلمين في هذه الفترة تتزحزح بين مد وجزر في الرواية كلها، والسبب يرجع إلى عدم القيادة اللائقة وفقدان الثقة بأنفسهم وسيادة القنوط واليأس عليهم، بعضهم كانوا يريدون المحاربة والثورة والتمرد على الدولة ونبذ كل من الأمور الملكية، والحياة الكريمة والعيش الكريم أو الموت النبيل، لأنهم يرون أن الحصار السياسي والاجتماعي والثقافي كان يضيق بهم لحظة بعد لحظة، وسيأتي يوم لا يكون لهم سبيل إلا الخضوع والإستسلام والركوع أمام النصارى بذلة ومهانة، والعيش في حي مغلق ليس له إلا باب واحد، وهو باب الترحيل والهجرة، وبعضهم يخافون النتيجة المتوقعة إن فشلت الحركة الجهادية، كما قالوا: "ولماذا نحاربهم ألم تكفنا عشر سنوات من الحرب؟ هل تريد أن يحل بنا ما حل بأهل مالقة فنأكل البغال والحمير وأوراق الشجر؟ إن المعاهدة تنص على معاملتنا معاملة شريفة واحترام ديننا وعاداتنا وتقاليدنا وحريتنا في البيع والشراء، ومن حقنا الاحتفاظ بأملاكنا وأسلحتنا وخيولنا، ومن حقنا اللجوء إلى قضاتنا للفضل

في خلافاتنا، حتى أسرانا دون إلينا أحرارا معافين.[1] وبعضهم ظلوا منتظرين للنجدة والمدد من عدوة المغرب ومصر ومن بني عثمان طوال الرواية. وبعضهم تهربوا إلى الجبال والمناطق السواحلية وتشكلوا هناك جماعة متمردة تقوم بالحملة الخفية على القشتاليين والنهب على أملاكهم وثرواتهم. ثم إنهم تشكلوا حكومة مستقلة عن حكومة قشتالة، وانتخبوا لذلك أربعين رجلا ليتولوا أمورهم وأمر إدارة البيازي.[2] وأخيرا إنهم اعتزموا على التمرد ونبذ مملكة قشتالة، واستعانوا من ملك فرنسا هنري وتسلموا مبعوث الملك الفرنسي 120000 دوقة من الذهب كإسهام مالي في الحملة التي يقوم بها الفرنسيون، وتسلموا الخرائط المفصلة للشواطي والقلاع وأماكن تجمعهم وأماكن تجمع الفرنسيين، ووعدوا بتقديم ألف مقاتل من شبابهم يقومون بالإستيلاء على ثلاث مدن، ومنها عاصمة بلنسية. [3] ولكن الفرنسيون عقدوا الصلح مع الأسبانيين كما فعل بهم الإنجليزيون، وعلمت السلطة خبر تمرد المسلمين وثورتهم، فأصدرت الحكم بترحيل المسلمين كاملا من البلاد الذي جاء فيه "المقدمة المعتادة عن خيانة عرب البلاد، بناء عليه تقرر ترحيلهم في غضون ثلاثة أيام إلى الثغور المحددة، والموت عقوبة المخالفين، للراحلين أن يأخذوا من المتاع ما يستطيعون حمله على ظهورهم، وتتكفل السلطات بإطعاهم أثناء السفر، وعلى كل أن يلزم مكانه انتظارا لنقله إلى الشواطئ، ومن يبرح مكانه يتعرض للنهب والمحاكمة، ومن يقاوم يعاقب بالموت، أملاك المرحلين صارت بحكم المرسوم الملكي ملكا للإقطاعيين، فمن يعمد إلى إخفاء أملاكه أو حرقها يعاقب هو وكل سكان الناحية بالموت، يبقي من كل مائة ستة لزراعة الأرز، وتنظيم الريّ، وإدارة معامل السكر وأعمال البناء، يتم انتقاؤهم من الأسر المشهود لها بالولاء، يسمح ببقاء الأطفال دون الرابعة، إن أراد إليهم ذلك، ويسمح للأطفال دون السادسة بالبقاء أيضا إن

[1].نفس المصدر، ص 16.
[2].نفس المصدر، ص 60.
[3].نفس المصدر، ص 464.

كانت الأم عربية والأب نصرانيا قديما، ويرحل الأب العربي تاركا أولاده مع أمهم إن لم تكن عربية مثله، يسمح بالبقاء لمن يزكيهم القس بعد التأكد أنهم لم يخالطوا أيا من أبناء العرب لعاملين متتاليين، من يخف الهاربين أو يتستر عليهم يعاقب بالسجن ست سنوات، ومن يتعرض للمرحلين بالإهانة أو الأذى يعاقب، يسمح لعشرة من العرب بالعودة بعد كل نقله إلى الشواطئ المغربية لكي يطمئنوا باقي الأهالي أن النقل تم بسلام".[1] وتحت هذا الحكم الرسمي تم ترحيل جميع المسليمن من البلاد، وامتلاك أملاكهم وثرواتهم الهائلة القيمة، وبه انتهى مجد الإسلام وتاريخه من الأندلس المفقودة.

[1].نفس المصدر، ص 489.

الفصل الثاني

القضايا الاجتماعية في رواية "ثلاثية غرناطة"

إن رواية "ثلاثية غرناطة" رواية تاريخية ملحمية تجري أحداثها عبر خمسة أجيال لعائلة بيازينية عبر قرن من الزمان بداية من سنة إعلان المعاهدة التي تنازل بمقتضاها أبو عبد الله الصغير عن ملكه وانتهاء بخروج العرب المتنصرين الجدد (الموريسكيين) من البلاد، والذين أجبروا على ترك إسلامهم واعتناق المسيحية الكاتوليكية أملا في البقاء في وطنهم، واستماتوا في الحفاظ على هويتهم العربية ودينهم الإسلامي المتين سرا رغم بربرية محاكم التحقيق وويلات التعذيب الوحشي وألوان الظلم والإضطهاد والخناق المتنوعة، ومنهم من مات قهرا، ومنهم من مات حسرة ويأسا، ومنهم من مات مستسلما وخضوعا، ومنهم من مات لكثرة خيبة الأمل، ومنهم من عاش طويلا مؤمن بالله ونصرة لعباد الله منتظرا أن يأتي النصر يوما لا محالة، بعد أن دفع بهم إلى قاع السلّم الإقتصادي والإجتماعي، فعاشوا مغتربين في أرضهم يواجهون زمانهم برفع السلاح حينا وبالتقية لحين لآخر، بالغضب حينا والممالاة لحين لآخر،ولكنهم بالأخير شربوا مرارة الترحيل والهجرة، ولم يتمكنوا من دفع البلاء عن أنفسهم وعن كافة المسلمين في البلاد.

فهذا مائة عام من تاريخ الذل والهوان والإنكسار الذي عاشه أهل غرناطة والمدن المجاورة لها ملئ بالتفاصيل والأحداث والشخصيات والعلاقات المتشابكة، وهي تاريخ وجع وحزن لبقايا المسلمين المقهورين المظلومين الغزاة منذ أواخر القرن السادس عشر حتى بدايات القرن السابع عشر الميلادي، لا نتوقع من الرواية أن تعرض لنا صورة الإجتماع بالتفصيل، وتتعمق في معالجتها، ولكننا مع ذلك نجد فيها صورة مفصلة للمجتع الأندلسي

العربي، ووصف للحدائق والبساتين والأنهار والمزارع والبيوت والشوارع والأسواق والأحياء القديمة وسلوكيات البيع والشراء وحوانيت العمال، تم تدخل البيوت المغلقة لتنقل لنا الحياة اليومية والأطعمة والطقوس وهمسات النساء وألعاب الأطفال وقصة الحب والعشق والعادات والتقاليد والملابس والشجار بين أفراد البيت، وكذلك تحكي لنا الرواية عن كيفية صيامهم وصلاتهم واعتكافهم وممارستهم العقائد والعبادات الإسلامية سرا، وتخبيز الكعك في آخر الليل حذرا من عيون الحكومة، والقيام بالحفاظ على كتبهم مخطوطاتهم وخزائنهم العلمية والأدبية والفنية ولغتهم وثقافتهم العربية، وعن طريقة ذبيحتهم وحفلات عروسهم وغير ذلك من التقاليد والعادات الإجتماعية. فقرأتها والتعمق فيها لا يخلو من الفائدة، فلذلك نذكرها هنا بالإيجاز.

صورة الدين والثقافة:

إن أهم الصورة الإجتماعية الأندلسية التي تظهر أمامنا خلال منافذ أحداث الرواية هي الصورة الدينية والجانب العقدي للمجتمع الإسلامي، فنحن نرى أن المجتمع الإسلامي الأندلسي كان متميزا بعامة بالإمساك بعروة الدين وممارسة العقيدة الإسلامية والتفكير بالفكر الإسلامي والتثقف بالثقافة العربية والحفاظ عليها بأي قيمة حتى في أيام المحنة والفتنة والبلاء والصعوبة، إنهم كانوا متفكرين كثيرا بصدد دينهم ولغتهم وثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم الإسلامية والعربية بعد سيطرة القشتاليين على غرناطة وبعد نزول أبي عبد الله الصغير عن ملكه بموجب المعاهدة، فنصوص المعاهدة كانت تنص على أن الحاكم الجديد يعامل مع المسلمين معاملة شريفة ويحترم دينهم وعاداتهم وتقاليدهم وحريتهم في البيع والشراء ويعطيهم حق الاحتفاظ بأملاكهم وأسلحتهم وخيولهم وحماماتهم، ويمنحهم حق اللجوء إلى قضاتهم

للفصل في خلافاتهم، [1] وأن لا يجبرهم على التنصير والتخلي عن ملابسهم العربية وهويتهم الإسلامية والدينية.[2] ولكن السلطة الجديدة الغرناطية خانت وخلفت كل ما وعدت للمسلمين، وبدأوا حملة عشوائية على كل ما يتعلق بالإسلام والهوية الإسلامية والثقافة العربية، بألوان مختلفة وأشكال متعددة تحت الأمر الرسمي كما بينت في الفصل السابق، فاضطر المسلمون إلى اتخاذ الإجراءات اللازمة للحفاظ على شخصيتهم وثقافتهم، فتصف الرواية بأنهم بذلوا كل غال ورخيص في سبيل الحفاظ على كتبهم ومخطوطاهم وخزائنهم العلمية التي تعد منبع الثقافة والدين والعلم والفن والأدب، مرة بنقلها من بيت إلى بيت آخر، ومن حي إلى حي آخر، ومرة ثانية بإخفاءها في الكهوف والأطلال والمنازل المهجورة وسراديب البيوت والصناديق و في تحت الأرض، كما فعل به أبو جعفر الوراق حينما تضيق عليه الحصار من السلطة القشتالية وامتدت عيونها، "إنه اتفق مع زملائه في حارة الوراقين على نقل الكتب تحت جنح الليل إلى بيوتهم، ثم نقلها بعد ذلك في وضح النهار إلى المخابئ الدائمة في عربات، أو على ظهور البغال مموهة ببعض المنقولات وكأنهم يقصدون الموانئ راحلين، أو ينتقلون من بيت إلى بيت، وقرروا أن يتم ذلك تدريجيا وبتنسيق وهدوء وحنكة لا تلفت أنظار السلطات، واستقر الرأي على توزيع الكتب على العديد من الأماكن، الكهوف في الجبال، وأطلال المنازل المهجورة وسراديب البيوت.[3]

وبالفعل إنه فعل ذلك ونقل كتبه وبعض كتب أصحابه من حي البيازين إلى عين الدمع في عربتين، ثم بعد أسبوعين حملها في ثلاثة بغال وعربة إلى حي البيازين، لئلا تعرف عليها السلطة وتقبض عليها.[4]

---

[1].رضوى عاشور: ثلاثية، ص16.
[2].نفس المصدر، ص180.
[3].نفس المصدر، ص48.
[4].نفس المصدر، ص49.

ولكن هذه التدابير الكثيرة المساعي المجهودة ما استطاعت أن تدفع عيون السلطة، إنها علمت عن الكتب وقبضت عليها من الأمكنة المختلفة، وأحرقتها أمام الناس في باب الرملة، وهكذا ضاعت أعمالهم وثرواتهم العلمية والأدبية ومساعي ثمانية قرون لهم، وكان لحرق الكتب والمخطوطات بما فيها القران الكريم أكبر الأثر على أبي جعفر الوراق، ولم يكن يتصور يوما أن يرى الكتب أو الأمة تهان بمثل هذا الشكل، كان أبو جعفر يحدق في المشهد ثم يغض الطرف ثم يعود يحدق ويتمتم بكلام غير مفهوم. وهو كان يتشبث بقشة الغريق: فهل يعقل أن يتخلى الله عن عباده! وإن تخلى فهل يمكن أن يترك كتابه يحترق؟! كان حرق الكتب بالنسبه له حرق الغابة التي حملت الريح بذورها وسقتها أمطار السماء، فنمت وترعرعت، ثم أضرمت النار فيها فطاشت في أخضرها تلتهم الغصون والجذوع، أو كالحقل الذي عمل فيه الفلاحون لمدة طويلة، وبذروا فيه ألوانا مختلفة من أشجار الزهور والليمون والزيتون والتين والحنطة والبرتقال، وسقوها بالمياه حتى نمت وترعرعت، ثم يأتي يوم يحترق فيه الحقل تماما أمام عيونهم، فيقولون لا حول ولا قوة إلا بالله . لم يستطع أبو جعفر أن يصبر على الألم الشديد والوجع الفظيع والمشهد المحزن المميت، فمات في تلك الليلة بعد ما قال لزوجته "سأموت عاريا ووحيدا لأن الله ليس له وجود".[1]

ولما عرف الوراقون الآخرون الخبر عن إحراق الكتب في باب الرملة، هربوا بكتبهم إلى الأمكنة المختبئة ونقلوها إلى الأقبية والكهوف والبيوت والأطلال القلاع المهجورة، أو أغلقوها في الصناديق ثم أخفوها تحت الأرض.[2]

وكذلك ركزت الرواية على اهتمام المسلمين الغرناطيين البالغ بتعليم أبناءهم الدين واللغة، وتثقيفهم بالثقافة العربية، وإبعادهم عن الحضارة والثقافة الغربية القشتالية، وهكذا تريد

[1].نفس المصدر، ص 52-51.
[2].نفس المصدر، ص 297-296.

الكاتبة وصف الأهمية التعليمية وضرورة الثقافة في المجتمع الإسلامي الأندلسي، إلى أي مدى يهمهم التعليم وإبعاد الجهالة عن أنفسهم، كما نرى أبا جعفر الوراق متفكرا كثيرا بصدد تعليم حفيديه حسن وسليمة، بالرغم على أن بعض معارفه وأصدقاءه ينبهونه إلى ما يكلفه من نفقات تعليم حفيديه تبديد لا طائل من ورائه، وأن هذا الزمان ليس زمان العلماء والفقهاء والنساخين، وأن اللغة القشتالية قادمة لا محالة والعربية لم تعد بضاعة رابحة، ولكنه مع ذلك "لم يفكر ولو للحظة واحدة عن تعليم الصغيرين ليس فقط لأنه كان عنيدا في تحقيق رغباته ولكن أيضا لقناعته بأن التراجع عن تعليم حفيديه تسليم بهزيمة قد يقدر الله ألا تقع في نهاية المطاف، لم تكن أحلامه قد تخلت عنه، فكيف يتخلى هو عنها؟ وكان يحلو له أن يتخيل أن كل ما هو كائن ليس سوى كابوس عابر، لأن الله لا يمكن أن يترك عباده وينساهم كأنهم لم يعبدوه ويعمروا بيته وقلوبهم بحبه وذكره...ويرى أياما قادمة ينسحب فيها القشتاليون إلى الشمال ويتركون غرناطة تعيش بسلام في ظل الحرف العربي وصوت المؤذن".[1]

ونتيجة لهذا الاهتمام بالتعليم نرى سليمة "لم تبلغ التاسعة من عمرها قد أتمت ثلث القرآن حفظا تقرأ بسهولة ويسر وتكتب بخط واضح وسليم، يطري عليها أستاذها لسرعة فهمها واستيعابها ما يشرحه لها من قواعد النحو وتحفظ الأشعار ما لا يحفظه رجال طالت لحاهم، وحسن يرسم الخط رسما وتستقيم سطوره كأنما هي إفريز بديع من أفاريز المساجد، والصفحة تخرج من بين يديه متعة للناظرين، ومعلموا الصغيرين يستبشرون بذكاءهما خيرا، فيغدق أبو جعفر في مكافأتهم حتى وإن اقتطع من ثمن ملف أو مركوب يتوجب شراؤه عوضا عن المرقوع البالي".[2]

[1].نفس المصدر، ص 42.
[2].نفس المصدر، ص 31، وأيضا 43.

وكذلك اهتم حسن بتربية أولاده بتربية إسلامية عربية صالحة رغم الحكم الرسمي الذي كان يحظر استخدام اللغة العربية وقراءة الكتب العربية، فكانوا يتكلمون بالعربية في البيت ويعيشون كما عاش آباءهم واجدادهم، وفي الشارع والمدرسة يتحدثون القشتالية ويسلكون بما يرضى السلطة الحاكمة، كما كان هو قلقا بشأن نوع التعليم يتلقاه حفيده علي في المدرسة الإرسالية، لم يرسله إلى أي من الفقهاء الذين يتعهدون الصغار سرا في بيوتهم، قرر أن لا يزج بالصغير وبنفسه في مشكلات قد تزداد تعقدا بما لا تخمد عقباه، فالحقه بالمدرسة الإرسالية حيث تعلم الأبجدية اللاتينية، وانطلق لسانه في الحديث بالقشتالية، ولم يكن ذلك يقلق حسن، بل يقلقه ولع الصغير بالأناشيد الدينية الكفرية الإلحادية التي صار يحفظها عن ظهر قلب، إنه تأمل المشكلة ليال متصلة، وقلبها على وجوهها، ثم استقر على ضرورة تعليم حفيده اللغة العربية بما يمكنه من قراءة القرآن الكريم والكتب العربية للحفاظ على الميراث الإسلامي القيم، فقال يوما لحفيده بأنه يحمله سرا عليه ألا يفشيه لأي إنسان بأي صورة، ثم علمه الحروف الأبجدية العربية والقرأة العربية،[1] وأخبره عن الكتب التي قامت بإخفاءها جدتاه مريمة وسليمة في عين الدمع خوفا من القشتاليين.[2]

تشير الرواية خلال السطور السابقة على مدى اهتمام المسلمين بالدين والعلم والثقافة واللغة والأدب العربي حتى في أيام المحن والفتن والبلاء، فكانوا يصلون سرا، ويصومون ويعتكفون سرا، يخبزون الكعك بيوم العيد في آخر اليل لئلا تتطلع عليه السلطة، ويتزينون بالملابس العربية في البيت، ويتعلمون اللغة العربية والعلوم الدينية خلف الباب المغلق، إنهم ما نسوا ولو للحظة واحدة واجباتهم الدينية ولم يتخلوا عن ولاءهم لنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، كما نرى ملامح الإمساك بالدين وقت البلاء في ضمن التهم التي أتهمت بها سليمة

[1].نفس المصدر، ص 273-272.
[2].نفس المصدر، ص 278.

من قبل محاكمة التفتيش بأنها إرتدت عن الكنيسية والعقيدة الكاثوليكية التي احتضنتها وأرادت الخلاص لروحها، ورغم التعميد أنها ما زالت مبقية على دينها المحمدي ولاءها للنبي، تختزن الكتب العربية وتقرأها وتستفيد منها في أعمالها الطبية.

ولكننا نرى هذه الحماسة للدين والثقافة العربية تقل يوما بعد يوم بمرور أحداث الرواية بسبب امتداد أيام البلاء والفتن وطول مدة الويلات والصعوبات وتباعد زمن الأسلاف وخير القرون وسيادة اليأس والقنوط على المسلمين، حتى ظهر حزنهم وألمهم وخيبة أملهم في شكل الشكوى والابتهال إلى الله الذي نحس فيه نوعا من الإزدراء واللامبالاة إزاء الدين والثقافة العربية، كما قال أبو جعفر عند موته بسبب حادثة إحراق الكتب والخزائن العلمية في باب الرملة: " سأموت عاريا ووحيدا لأن الله ليس له وجود". [1] وظلت سليمة تتحير في فلسفة الموت والحياة، وبدات تعد الدواء والعقاقير لدفع الموت عن الإنسان، وكذلك شكت مريمة إلى الله قائلة: "ما عدنا نطيق، والله ما عدنا نطيق، فلماذا تبلونا بكل هذا البلاء؟ هل طلبنا منك الكثير؟ لم أطلب جاها ولا مالا، ما طلبت سوى أن أكحل قبل الموت عيني برؤية الصغار، وأن أدفن بعد الموت، بما شرعته من غسل وكفن وآيات من آياتك تقرأ في العلن علي، فلماذا تضن وأنت الكريم؟ ولماذا تستبد وتقهر وتتجبر، وأنت الرحمن والرحيم؟! هل قام أجدادنا بجرم تعاقبنا نحن عليه، أم أنت خلقت الكون للبشر بخيرهم وشرهم يسيرونه على هواهم كيفما يكون؟ ولماذا تتركهم ما دمت تعرف هواهم هكذا، شرس ولعين؟...أنا مريمة إبنة إبراهيم منشد سيرة نبيك ومصطفاك وصحابته الأكرمين...وربيت الصغار وكبرتهم، ما سرقت يوما، ما خنت أمانة، ما كذبت قاصدة شرا بأحد من العباد، فلماذا تلوّح لي بنصرة في المنام أتعلق بها وتطلق الأمل من صدري ليحلق عاليا، ثم تسقطه فأعيش بدلا من الحسرة

[1] .نفس المصدر، ص 52.

الواحدة حسرتين؟! الولد الجميل ولى وجهه شطر قبلتك، واستعاد اسم مصطفاك، وجاهد كما عينت في شرعك وكتابك، فلماذا تأخذه وسماؤك عامرة بأنبيائك وملائكتك والقديسيين؟! لماذا؟ قل لي لماذا تمنح خصومنا فرحة الزهو بالانتصار وتعلي مجدهم على أطلالنا؟ هل هجرتني...هل هجرتنا؟!"[1]

كما نرى علي لا يهمه الكثير التراث العلمي والأدبي الذي أخبره عنه جده حسن، ولا يلتفت إليه، كأنه لا قيمة عنده لهذا التراث العلمي، فهو يقول مرة "كان أجدادي مسلمين وتنصروا، وأنا الآن نصراني".[2]

هذا يدل على أن الحضارة والثقافة والعقيدة الجديدة فعلت فعلها وتركت أثرها، وتمكنت من إبعاد الجيل الجديد من الدين والعقيدة الإسلامية والثقافة العربية، حتى نرى فيهم عددا من المآسي الاجتماعية كالكذب والزنا والجنس قبل الزواج وشرب الخمر ومتابعة الفتاة واللامبالاة وتضييع الأمانة والاحتيال وغيرذلك، كما نرى نعيم "وهو في الرابعة عشرة من عمره يبدو طفلا، وكان رغم ذلك غارقا في الحب حتى أذنيه، يعيش حالة من الوله المتجدد المستمر، يرى صبية يفتنه جمالها فتسارع دقات قلبه، ويشتعل وجهه، فيتبها كالممسوس، يسأل عن إسمها وأهلها وعنوان دارها، تحمله قدماه كل يوم إلى حبها لعله يراها، يردد اسمها ويكتبه في حجاب صغير يتحرز به أسبوعين، ثلاثة، وربما أربعة، ثم تظهر حبيبة جديدة تحل محل القديمة في قلبه وفي الحجاب".[3] وبالأخير إنه وقع علاقة جنسية مع مايا ذات الوجه الأسمر والعينين السوداواتين الشفتين الممتلئتين والشعر الأملس. [4] وكذلك نرى حسن إنه التمس علاج ألمه وحزنه العميق في الشراب بين النساء العاريات والجنس معها حتى الصق شفتاه

[1].نفس المصدر، ص 340-341.
[2].نفس المصدر، ص 448.
[3].نفس المصدر، ص 30.
[4].نفس المصدر، ص 206.

بشفتيها "وراحت المرأة تموء كقطة برية فزاده مواؤها شبقا على شبق فأمالها على الفرشة وغمرها بجسده وطاشت فيه نار الفعل حارقة تعلو وتلتهب، ولما خبت ناره ونارها لفهما السكون كأنهما خليقة أولى في مبتدئ الزمان، حيث لا صوت بعد ولا صدى، لا قديم ولا جديد، لا ذكرى ولا ذاكرة، ولا شيئ سوى امتزاج البرتقالي بالأخضر، والفضة السائلة ماء أو سماء تتلامس فيها الغيوم، سكبت واحدة ماءها وسواها ممتلئ ينذر بالمزيد".[1]

قضية المرأة:

تتجلى قضية المرأة في الرواية بوضوح، فهي تظهر بألوان مختلفة وأشكال متعددة، كالجدة والأم والبنت والأخت الحماة والكنة والحبيبة والزوجة والمومسة وغير ذلك، وتلعب في كل صورها دورا هاما في تسيير ركب أحداث القصة إلى الأمام، ومن خلالها تتجلى أمامنا الجوانب الإجتماعية الكثيرة، ومنها نعرف حاجاتها الماسة في الحياة، كما تظهر في صورة الجدة والحماة في شخصية أم جعفر التي أحكمتها التجربة والخبرة، تدبر البيت بكل حنكتها وحذاقتها، وتواسي زوجها، وتحنو على حفيديها حسن وسليمة، وتشجع الصغار في أيام المحنة والبلاء، وتقوم بالمصالحة بين افراد الأسرة خاصة بين كنتها زينب وكنة زينب مريمة حينما يحدث الخلاف بينهما، وتؤمن بالله إيمانا صادقا وبنصرته ومدده للمسلمين، تستخبر عن أحوالهم، وتضطرب أحوالها بأحوالهم المضطربة، وهي تظهر في صورة الحماة والأم في شخصية أم حسن زينب التي فقدت زوجها أبا حسن في الفترة المبكرة من زواجها ولكنها مع ذلك ما فقدت أملها، وقامت بتربية أولادها حسن وسليمة تربية صالحة، وتزوجها بعد فحص دقيق وإطمينان كامل، تخدم حماها وحماتها، وتراعي البيت بأسلوب جيد، وتخلق الإنسجام الكامل بينها وبين أفراد الأسرة، فهي تظهر في صورة الكنة والجدة معا في شخصية مريمة

[1] .نفس المصدر، ص 198.

التي اشتهرت بين الجيران ونساء الحي بمفاجأتها المدهشة، يسعفها عقلها بحسن التصرف السريع الذي يحول مرارة حكم القوي على الضعيف إلى ضحكات عفية ساعة تنقلب الآية فيصبح القوي ضعيفا والضعيف قادرا ومزهوا، "فهي تتقن حفظ اللحم بتقديده، وإمعاء الخراف بحشوها، والسمك بتمليحه، والزيتون والليمون والباذنجان بتخليلها، وتتقن صنع أنواع الفطائر والجبن والمعجون والشراب وغيرها مما لا تخلو منه دار عامرة بالآكلين من أهلها ومن الضيوف".[1]

وكذلك تظهر المرأة في الرواية في صورة الأخت والبنت معا في شخصية سليمة التي ورثت الفطانة والذكاء من جدها أبي جعفر، تتقن الكتابة والقراءة وتعد العقاقير وتعالج الأمراض، وتواسي الضعفاء والفقراء حتى تعطيهم دواء بلا أجر، وكذلك تظهر المرأة في الرواية في صورة المومسة التي لجأت إلى تجارة الجسم لكسب لقمة العيش، وكذلك نرى صورا أخرى للمرأة في الرواية.

إن الصفة العامة التي تظهر من خلال هذه الشخصيات النسائية في الرواية بأنها كانت تتمتع بالحرية في ذلك المجتمع، وتبدي رأيها بدون أي تردد وخجل، كما نرى سليمة التي تظهر في الرواية كأمرأة تتصرف في الأمور بكل حرية، أنها أجابت وردت ظن أمها بحسم وحزم بأنها راضية من الزواج مع سعد وأنها لا تجد زوجا كسعد، وكذلك أنها نالت الحرية في اختيار البعد عن سعد ونشاطاتها الطبية رغم الضغظ من أخيها وأمها وجدتها، [2] وكذلك نرى مريمة تتصرف في الأمور، وتبيع الكعك في الأسواق، تراعي أهل بيتها كما تريد بكل حرية واستقلال، إن استقلالها وحريتها تظهر بوضوح حينما "تدافع أم حسن عن نفسها

[1].نفس المصدر، ص 109.
[2].نفس المصدر، ص 69.

وتعزز دفاعها بأنها لم تر أبدا إمرأة يقوم زوجها من نومه، ويذهب إلى عمله وهي بعد نائمة في فراشها، وتقضي النهار بعد ذلك هي تثرثر.[1]

وخلال هذه الشخصيات نرى كثيرا من الجوانب الإجتماعية والثقافية، كما نرى الشجار بين الحماة والكنة الذي هو سنة من سنن الكون من البداية، والأنواع المختلفة من الطعام، كالكعك والكسكس والمرقة الحلوة والثريد والفطائر وغيرذلك، والكلام الهزل بين سليمة ومريمة، ونقش البيوت وتزيينها بنقوش وألوان مختلفة، وخط جدرانها بآيات القران الكريم، وبذر أشجار متنوعة في ساحة البيت، الرسوم والعادات التي تجري في مناسبة الزواج، كما تتمثل في زواج سعد وسليمة، وقد دقت الروائية في بيان تفاصيلها بكثير في الرواية، كحمل نعيم وحسن الفطائر المقلية المغمورة بالنحل والزيتون التي أعدتها أم جعفر وأم حسن وإمرأة ثالثة من القريبات منذ الفجر إلى بيت الجيران والحارة والمعارف والأحباب إعلانا لحفلة العرس، ثم ذهبت سليمة وأمها وجدتها ونسوة الحي وصغارهن وصبايا يقاربن سليمة العمر قبل العرس بيومين في عربات تجرها البغال مع السلال والمناديل المصرورة على المناشف النظيفة والغيارات وأكياس التفريك واللفوف والطاسات المكية والصابون وأوان وقوارير أودعت فيها النساء حاجتهن من الحناء والمسك وزيت اللوز وزيت الزيتون إلى حمام الهنا، ضرب الدف والطبلة وأعلنت المحبة بصنع فطائر شهية محلاة بالعسل ومحشوة بالجبن والينسون أو بالجوز المطحون، وشرب شراب الفاكهة، احتفظ به منذ شهور في انتظار المناسبات السعيدة.

وكذلك صخب الصغار بزغاريد النساء ورقصهن وداعواتهن بالسعد والأفراح ، وخلع ملابسهن واتزارهن بمنشقة حول خصرها وأخرى على الكتفين تستر ولا تستر النهود العارية

[1] .نفس المصدر، ص 108.

داخل الحمام، وتغسيل جسد سليمة وشعرها بالصابون عارية تماما، وتناول الطعام، ثم إقامة حفلة العرس بيوم العرس وحناء العريس ودعوة الناس إليها، وفرش الأرض بالأبسطة والزرابي وإحضار الطعام لهم ورقصهم وغناءهم،[1] وغير ذلك من العادات والرسوم التي تشير إلى الحضارة الممتزجة بين الشرق والغرب.

ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أن معظم هذه الطقوس والشعائر الدينية أصبحت مجرد تقاليد وعادات إجتماعية وثقافية، ما كانت لها علاقة دينية لأنها كانت خالية من الروح الديني، فمعظم الشخصيات لم ترد في قبول التنصير الشكلي، ولا تحزن إلا على مظاهر الإحتفال في العيد ورمضان وطقوس دفن الموتى، ولكنها لم تهتم كثير لعمق الدين والعقيدة الإسلامية، وهذا الجوء غالب خاصة في الجزئين الأخيرين للرواية.

البطالة السائدة في المجتمع:

نجد في الرواية بعض الإشارات التي تشير إلى البطالة السائدة في المجتمع الإسلامي الأندلسي خاصة بعد دخول القشتاليين في غرناطة وسيطرتهم على معيشة البلاد وبسبب سياستهم الانحيازية المتعصبة إزاء المسلمين، كما نرى سعد ونعيم وعلي ورجالا آخرين مضطربين في طول الرواية بسبب قلة المعاش، حتى نرى نعيم يتخلى عن عمله ليحل محله سعد ويراعي أهله، ولكن هذا الأمر ماكان أمرا عاما، بل هناك نرى صورة أخرى للمسلمين الذين يملكون ثروة هائلة، والسلطة القشتالية تمهل معهم لكونهم في حاجة إلى ثروتهم لتسيير أمور الدولة، وكذلك كان المسلمون يعملون بعدد كثير في الزراعة والصناعة.

[1] .نفس المصدر، ص 82-77.

المادة خلاف الدين:

إن الرواية تشير إلى أن المجتمع الإسلامي الأندلسي كان يهمه الجانب المادي والعمراني أكثر من الجانب الروحي والديني، كما نرى أبا منصور الذي كان يهتم بالحمامات تحت نعرة الحفاظ على الثقافة العربية ولكنه كان يشرب الخمر ويغرق في الملذات، ومريمة تحلم بإستعادة العهد الإسلامي في الأندلس ولكنها في جانب ما كانت تهتم بالقوانين الإسلامية، وزوج حسن بناته من أسرة غنية على أساس اختيار المادة رغم عدم اتفاق زوجتها مريمة لكون الأسرة أسرة غريبة غير معلومة بالنسبة لهم، وكذلك رأينا في الرواية كيف ترفض أم حسن زواج إبنتها سليمة مع سعد على أساس كونه فقيرا ومن أسرة فقيرة.

هذه صورة وجيزة وقضايا مهمة رئيسية للمجتمع الإسلامي الغرناطي التي نجدها في الرواية خلال الدراسة، مع القضايا الأخرى الثانوية التي لم ألتفت إليها إجتنابا من الطول.

الفصل الثالث

تاريخ الأندلس من منظور ثلاثية غرناطة

الأندلس يا له من إسم محبب وجميل لقلب كل عربي سواء قربت بلاده من الأندلس أم بعدت، وسواء أدري الكثير عنها أم القليل، وحتى المحلات الصغيرة والقرى الشهيرة والمجموعات والمنتديات على مواقع الإنترنت التي تعكس إسم الأندلس، وما أكثر كلامنا عن فتح بلاد الأندلس وفاتحيها وأحداثها ومعاركها وإجتهادها للفوز بها، وما أكثر مدحنا وإشادتنا وثناءنا على أمجاد الأندلس وإنجازاتها العلمية والفكرية والثقافية والمعمارية، وماسادها من تسامح فكري وديني وتعددية وقبول للآخر، في زمن كانت أوروبا تحرق فيه المخالفين في الفكر والعقيدة.

لكن كيف كانت نهاية الأنلس، وماذا حدث لشعبها، هل انتهى شعب الأندلس بسقوط المماللك الأندلسية، يعني، هل غادر شعبها إلى بلاد أو شمال أفريقيا أوغيرها من بلاد المسلمين مع حكامه المهزومين والمقهورين، أم بقى وعاش تحت الحكم النصراني الظالم المستبد . وماذا حدث لمن قبلوا النصرانية والعيش تحت حكم الممالك النصرانية، وكيف سارت حياتهم، وكيف كانت علاقتهم بالدولة والكنيسة؟ هل ذابوا في المجتمعات النصرانية، واختاروا المجتمعات الصرانية بأكملها، وكيف قامت المماليك النصرانية بالتعامل مع الاختلاف الديني والثقافي للمسلمين الذين خضعوا لسلطانها وملكها، هذه تساؤلات أمامنا هل لها إجابات عنها؟ بالطبع لها إجابات عنها . يجب أن نعترف بداية أن المعرفة بالأندلس كانت تقف عند عام 1492م، الذي سقطت فيه آخر ممالك المسلمين "غرناطة" ودانت للملكين الكاثوليكين فيردناند الأراغوني وإيزابيلا القشتالية. الذين هما قام بمعاهدة التعايش

السلمي والاحتفاظ بالدين والمؤسسات الدينية مع المسلمين واليهود والمذاهب الأخرى، لم يقض وقت قليل،

أنهما نقضا هذه الوعود والمعاهدة، وانتهكا جميع الحقوق للمسلمين واليهود والأقليات الأخرى، ولكن اليهود كانوا أول ضحايا لهذا التحول المشؤم، فعلى الرغم من أن اتفاقات الاستسلام ضمنت للأندلسيين من مسلمين ويهود ومولدين وأصدرا الأمر على اليهوديين أن يقبلوا التنصير، أو يجلوا عن الأراضي، وبدأت عمليات التنصير لليهوديين الذين خيروا بين التعميد والنفي، مع أنهم وجدوا عراقيل شديدة للخيار الأول، على كل حال، إنهم اختاروا الخيار الأول، وبالفعل اعتنق عشرات الآلاف من اليهود النصرانية في أشهر قليلة. وحتى بعد أن نصروا، لم يسلم اليهود من الأذى والمصائب والمشاكل الشديدة من قبل الملوك القشتالين ، إذ صدر فيرناند و إيزابيلا في عام 1477م مرسوما بابويا أجاز تشكيل محكمة التفتيش في قشتالة لكشف الزنادقة الذين تحولوا إلى "شريعة موسى"، ظلت تلاحق المنصرين اليهود حتى قضت على كل أثر لليهودية في أسبانيا .

عندما ننظر إلى أحوال المسلمين نجدها أكثر سوء، كما ذكرت مسبقا، عندما تملك الفشتاليون السلطة والسيطرة على أهل الأندلس من اليهود والمسلمين والمولدين والمذاهب الأخرى، إنهم تخلصوا من اليهود أولا ثم لفتوا أنظارهم إلى المسلمين وهي العملية التي بدأها رجل الدين المتعصب شسنيروس في إجبار المسلمين بالتخلي عن دينهم واعتناق النصرانية واستخدام الشدة والتعذيب والسجن لإجبارهم على اعتناق النصرانية. ولقد بدأ رئيس الأساقفة بحامد الثغري ذلك القائد الذي أبلى بلاء حسنا فى حروب الدفاع عن الممالك الإسلامية وقاد دفاعا مستميتا، تحكي الكاتبة عن الثغري عندما جاء مندوب الملك إلى الثغري وقال له أن يسلم المدينة للملك فيقول الثغري لمندوب الملك، "قل للملك، إن سيدي الزغل لم يوكل لنا

قيادة القلعة لنسلمها، سندافع عن مدينتنا" يجيب مندوب الملك "ولكن الملك أرسل لك هذه الهدية" يمد يده بالحصى الصغير والكبير، "وسيعطيك إن سلمت له المدينة قصرا ومالا أكثر" ويعيد الثغري الحصى لمندوب الملك وهو يقول فى اعتداد "لا أريد منك شيأ" ثم تندلع الثورة ويشاركون جميعا في النزال بسيوفهم الخشبية وتتسع الساحة لتشمل كرم العنب كله فيفترقون في أنحاء البلاد. ومع ذلك أن مسلمي غرناطة لم يذعنوا جميعا إلى هذا الترتيب الجديد .

ولم يمض وقت طويل، هرب زعماء البيازين بدينهم إلى جبال البشرات، التي كانت فضلا عن كونها حصنا طبيعيا، وموطنا لأكثر المسلمين تمسكا بدينهم. وقد عمت الثورة جبال البشرات، فرض المسلمون انتقاما بشعا على السكان النصارى المحليين. وسرعان ما امتدت الثورة إلى مقاطعة "المرية" المجاورة. فحشد الملكان الكاثوليكيان ثمانين ألف جندي لسحق الثورة. وكانت أسلحة المسلمين بدائية مقارنة بجيش القشتالين الذين كانوا في طريقهم إلى أن يصبحوا من أقوى جيوش. ولذلك انهارت المدن والقرى والثائرة تباعا بعد مقاومة شرسة. ومع أن كثيرا من المسلمين ولاسيما النساء، فضل الموت على التنصير ، وحضع معظم المسلمين للتيار وقبلوا التعميد، اعتقادا منهم بأنهم سيتركون وشأنهم بعد ذلك، فجرى تعميد المسلمين وسط أجواء احتفالية وكان الآلاف يعمدون، وتكرس المساجد كنائس ودق أجراس الكنائس، وبذلك نصر كل مسلمي غرناطة في بضعة أشهر.

وفي قشتالة أصدرت إيزابيلا مرسوما يخير المسلمين بين التنصير والنفي، والشروط هنا أيضا كانت تميل بشدة إلى الخيار الأول يعني اعتناق النصرانية ، إذ لم يكن مسموحا لمن آثروا النفي أن يأخذوا معهم الذهب أو الفضة وسلعا أساسية كثيرة أخرى، وحرموا من السفر البري عبر أراغون للتأكد من أنهم لن يستقروا هناك، وحرموا من الهجرة إلى معظم

العالم الإسلامي، والأهم من ذلك كله أنهم لم يكن مسموحا لهم اصطحاب أولادهم دون عمر الرابعة عشرة وبناتهم دون عمر الثاية عشرة الذين تقرر أن يعطوا لعائلات قشتالية، كي تنشئهم تنشئة نصرانية.

لم يكن دين الأندلسيين وحده هدف الاستئصال، وإنما ثقافتهم وتقاليدهم، التي ترتبط في كثير من جوانبها بالإسلام مثل " اللباس الأندلسي، وبخاصة لباس المرأة وغطاء الوجه النسائي المعروف بالملحفة. ولمزيد من التفتيش أنشئت محكمة التفتيش،في القرن الثاني عشر في اطار الكنيسة الكاتوليكية الرومانية بهدف "محاربة البدع" وانتهاك القانون الكنسي، فكان المسلمون هم الضحية لهذه المحكمة التي مدت فروعها إلى كل المدن وحتى القرى والبلدات النائية لم تسلم من زيارات محكمة التفتيش الكريهة، التي كانوا يطلقون عليها اسم "محكمة الشيطان" ، وقامت محكمة التفتيش باعقاب المسلمين ومنعت عن أداء الصلاة والصوم وعادات أكل ونوعية أطعمة وملابس وبخصاصة الملابس النسائية، واستخدام اللغة العربية ، وممارسات الزواج، ودفن الموتى وإدخال المواليد في الجماعة، ونبذ الموسيقي والرقصات الأندلسية على الرغم من أن هذه الأشياء التي لاتتعلق بالإسلام، وهي قطيعة يصعب إنجازها حتى لو أرادت الجماعة المضطهدة ذلك. فقاموا بثورتهم الكبرى التي عرفت بحرب البشرات عام (1568– 1570م) للحفاظ على هوييتهم، وأخضعوا للدفاع عنها من جانب محكمة التفتيش الغرناطية لدرجة أن المسلمين شكلوا 82% ممن حاكمتهم المحكمة، كما تقول رضوى عاشور في روايتها أن سليمة التي كانت الشخصية البارزة في الرواية أتهمت لأمر تافه أنها تقوم بممارسة السحر الأسود وتقتني في بيتها ما يدعو إلى الشبهة من بذور ونباتات وتراكيب تستخدمها في إيذاء الناس غير أنها تدواي المرضى ولكن المحكمة تحققت وقررت أنها كافرة لا توبة لها وعقابها الموت بالحرق فصخب الأصوات وجلبة الجموع

المحتشدة تدق في رأس سليمة كمطارق عالية تختلط بدقات قلبها وأنها تم اختناقها حرقا، فعيون عربية يفيض القلب أمام تظرتها الحانية أو المرتاعة وعيون قشتالية تبتسم مزهوة تتهيأ للفرحة. ورغم سخف المحاكمات التي كانت تفتش في ضمائر الناس بالتعبير الحديث، وتحاكمهم على جرائم تافهة مثل الاستحمام أوغسل الرأس أو غسل الأعضاء المخزية باعتبارها دليلا على ممارسة الشعائر الإسلامية، لأن الواشين هم مصدر المعلومات الأساسية للمحكمة في إتهمام الناس وإدانتهم يبلغونها عن جرائم لهم مثل "رفض أكل لحم الخنزير "، أو" التفوه باسم محمد " في لحظة غضب، أو التلبس بالاستحمام أو غسل " الإعضاء المخزية " إلى غيرها من الجرائم السخيفة وغير العقلانية التي عذب المسلمون وأحرقوا بسببها. على كل حال، انتهت سلطة المسلمين من الأندلس حتى أضطروا منها إلى الترحيل وبين عامي 1609م و 1614م أمر فيليب الثالث بطرد السكان المسلمين جميعا من الأراضي الأسبانية وأجلوا عن بلادهم.

الباب الثالث

ثلاثية غرناطه كما يراها الأدباء

- الفصل الأول: دراسة رواية "ثلاثية غرناطة" الفنية

الفصل الثاني: آراء الأدباء حول هذه الرواية

الفصل الأول

دراسة رواية "ثلاثية غرناطة" الفنية

إن رواية "ثلاثية غرناطة" رواية رائعة ذات فنية عالية حائزة على الجائزة الأولى للمعرض الأول لكتاب المرأة العربية في القاهرة في نوفمبر 1995م، وتحتل مرتبة أولى في سلسلة روايات رضوى عاشور، تقع على خمسمائة صفحة وصفحتين متوسطة الحجم، وهي تحتوى على ثلاثة أحزاء، جاء الجزء الأول منها بعنوان "غرناطة" بمئتين وست وأربعين صفحة، وبذلك هو الأوفر حظا من حيث عدد الصفحات، ثم تأتي "مريمة" في مائة وإحدى وخمسين صفحة، وأخيرا "الرحيل" التي وقعت بمائة صفحة وثلاث صفحات، وبذلك هي أصغر الأجزاء الثلاثة.

فنحن هنا بصدد دراسة هذه الرواية من الناحية الفنية والجوانب الإبداعية، وسوف نركز القول على حادثة الرواية وزمانها ومكانها، ثم ندرس دراسة وجيزة شخصيات الرواية ولغتها وأسلوبها الأدبي والفني.

قصة الرواية:

تحكي الرواية قصة عائلة غرناطية عادية يرأسها الجد أبو جعفر الوراق إلى الحفيد الأصغر علي مرورا بكثير من الشخصيات الرئيسية والثانوية، ومن أهمها: أم جعفر وأم حسن وحسن ومريمة وسليمة وسعد ونعيم وغيرهم، وتتناول التفاصيل اليومية والحياة العادية لهذه العائلة الممتدة إلى خسمة أجيال والأشخاص المحيطين بها والأحداث المتوالية التي تمر بها من عمل ووظيفة وزواج وولادة وسجن اغتراب، إنها تاريخ بشكل إبداعي فني لمائة عام من الذل والهوان والانكسار والتهجير والتعذيب والاحتلال الذي عاشه أهالي غرناطة والمدن

المجاورة لها، يبتدأ من عام 1491م أي العام الذي وقع فيه أبو عبد الله الصغير معاهدة التخلي عن ملكه لملكي قشتالة وأراجون، وينتهي إلى عام 1609م الذي تم فيه ترحيل جميع الموريسيكيين المتنصرين الجدد من البلاد، إن المعاهدة التي وقع بها ابو عبد الله ما كانت هي معاهدة سياسية فقط، بل كانت نهاية للعهد المجيد للمسلمين في الأندلس، ونهاية للحضارة والثقافة الرائعة لمدة ثمانية قرون، وضياع للفردوس المفقود تسليما لمملكة غرناطة، وبداية لسلسلة الأحداث والوقائع المليئة بالحزن والألم والعجز والانكسارالمتلطخ بدم الإنسان المظلوم المقهور أمام السلطة الجائرة الظالمة الخائنة التي لا مروؤة فيها ولاعلاقة إنسانية، وما كانت أن تراعي لعهد، بل عملت لاجتثاث كل ما يمت إلى الماضي بصلة، وإلغاء العادات والتقاليد والرسوم والطقوس والأزياء، واعتبرت كل متمسك بها جريمة، حتى التحدث باللغة العربية والتداول بملابسها وتسمية الأولاد بأسماءها وفتح الحمامات وخبز الكعك بيوم العيد وللحم بيوم الجمعة ودفن الموتى وذبح الذبيحة والتزوج على الطريقة الإسلامية والصلوة والصوم والاعتكاف وغير ذلك من الأمور الأخرى عدت من ضمن الجرائم يعاقب عليها بالسجن والغرامة الباهضة.

إن عائلة أبي جعفر التي تدور حولها قصة الرواية، ما هي إلا رمز للأندلس بأسرها، قد استعملتها الكاتبة لتصور أوضاع جميع المسلمين الأندلسيين خلال هذه العائلة، ولذلك نوعت في أنماط الشخصيات التي تنتمي إليها، وربما كانت الوفاة المتوالية في الأسرة محاولة لتشبيها بسقوط المدن الأندلسية واحدة تلو الأخرى، وفي نهاصة القصة لم يبق من هذه العائلة إلا علي الذي يريد الترحيل من الأندلس ولكنه في النهاية يغير رأيه ويختارالبقاء فيها لأن الموت كما يظن في الترحيل عنها ليس في البقاء.

إن قصة الرواية قصة رائعة جدا ومثيرة لذاكرتنا وأذهاننا، تفتح أمامنا صفحات التاريخ الذي نسيناه وخلفناه وراءنا، وتصف حياة الموريسيكيين وعرب مهزومين صاروا أقلية عرقية وثقافية، بعد أن دفع بهم إلى قاع السلم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، فعاشوا مظلومين مقهورين مغتربين في أرضهم وبيوتهم يواجهون ظلم الزمان وعدوانه بكل ذل وهوان ويسعون للحفاظ على تراثهم الحضاري والثقافي والعلمي رغم الويلات الكثيرة والمصائب المحدقة، كما هي تثير معا أمامنا كثيرا من الأسئلة حول ماهيتنا ووجودنا، وهل نحن بحق خير أمة أخرجت للناس، أم نحن فقدنا هذا المنصب؟ هل أدينا واجباتها تجاه الإنسانية أم قصرنا فيها؟ قصة الرواية توجع قلوبنا كلما نقلب صفحاتها، وتنقل لنا شيئا مما كان وحدث في ذلك الزمن المر، حتى نحس ونعيش في أحياء البيازين وعين الدمع وجعفرية مع مرارتها وشقاوتها وحزنها وألمها وأيامها ولياليها وحدائقها وأزهارها وبساتينها وأنهارها وشوارعها وأسواقها وبيوتها وحماماتها، ومع رجالها ونساءها ورسومها وطقوسها وأطعمتها اللذيذة المتنوعة وفواكهها الناضجة.

على كل حال، إن قصة الرواية رائعة جدا، نجد أقل بكثير هذا النوع من الرواية في الأدب العربي التي اهتمت بمأساة غرناطة كمادة لها، وتثير الوجدان وتخلب القلوب وتجذب القراء بكم هائل إلى قراءتها والاهتمام بها والعيش بين صفحاتها والسير مع أحداثها بحيث تندفع الأحزان المتوالية وتصب الآلام المتواصلة مع ذلك لا تترك شوقة متتابعة القراءة إلى النهاية.

شخصيات الرواية:

أظهرت رضوى عاشور براعتها في صياغة شخصيات الرواية مع تنوع الأحداث وطول قصتها، تتضمن شخصيات أجيال متعاقبة تعيش وتنتظر منفذا يأتي ليعيد لها المجد والكرم الذي ضاع عنها، وفقدت في غبار ماضيها، ثم تموت حسرة،

إن هذه الشخصيات ليست كتلك الشخصيات التي اعتدنا رؤيتها في الروايات، بل هي شخصيات عادية عاشت حياة الذل والهوان ومرارة الاحتلال والتعذيب والتسجين والتهجير والترحيل وقساوة الظلم والعدوان والاضطهاد طوال قرن، ولكنها مع ذلك لم تتمكن من دفع البلاء عن أنفسها ولا عن بيوتها التي هجرتها قسرا، ومنها من ماتت قهرا، ومنها من ماتت حسرة، ومنها من ماتت مستسلما، ومنها من ماتت من كثرة خيبة الأمل، ومنها من عاشت مدة طويلة في انتظار المدد والنجدة من المغرب ومصر وبني عثمان مؤمنة بالله ونصره لعباده المستضعفين.

إن عدد الشخصيات في الرواية كبير جدا نظرا إلى قصة الرواية الطويلة وتنوع جوانبها ومواقفها، بعضها رئيسية وبعضها ثانوية، لا يمكن لنا أن نحصي جميعها، ونتعرف عليها، فلذلك نقتصر القول على الشخصيات الرئيسية للرواية التي تنتمي إلى عائلة أبي جعفر أو تمت له بصلة مباشرة، وهي العائلة التي تدور حولها قصة الرواية.

- **أبو جفعر:** هو شيخ كبير ورأس العائلة وجد حسن وسليمة، رجل مؤمن صاحب ذي راي سديد، يملك حانوتا يعمل فيه عمل تغليف الكتب وتجليدها مع نعيم وسعد والذي وظفهما وعلمهما العمل، إنه قلق كما قلق رجال آخرون بأخر التطورات والأحداث في البلاد، وكافح مكافحة طيبة لحفظ التراث العلمي والحضاري من أيدي القشتاليين

ولكنه خاب أمله وقبضت على كتبه وأحرقت أمام بال الرملة، لم يستطع أن يصبر على هذا المشهد المؤلم، فمات في تلك الليلة رافضا وجود الله.

- **أم جعفر:** زوجة أبي جعفر، شخصيتها تتميز بالليونة والرفقة والفطانة والذكاء والرفقة، تواسي زوجها وتراعي أهل بيتها وتقدم بتربية أحفادها تربية صالحة عربية، وهي إمرأة ما كانت غافلة عن أحوال البلاد وتقلق منها، مؤمنة بالله وبنصرته ومدده ولعبادة المستضعفين، إنها كانت متأكدة أن المدد سيأتي يوما من المغرب أو مصر أو بني عثمان ويرجع لنا مجدنا وشرفنا، إنها تسير بيتا بعد موت زوجها بكل حنكة وتجربة ولكنها بالأخير تموت حسرة على البلاد.
- **أم حسن:** وهي إمرأة عادية تهتم بالأخص بعائلتها ومشاكلها اليومية، وتقوم بتربية أولادها حسن وسليمة تربية عربية وتخدم حماها وحماتها وتخلق الانسجام الكامل بينها وبين أفراد الأسرة، في البداية كانت شخصيتها مختفية أمام شخصيات أبي جفعر وأم جعفر ولكنها تظهر بوضوح عند زواج سعد وسليمة.
- **سليمة:** حفيدة أبي جعفر، تكبر من حسن بثلاث سنوات، وهي شخصية رئيسية للجزء الأول من الرواية، وهي فتاة ذات الشعر المشعث والنظرة الساردة، وهبها الله الحكمة والمعرفة وحب الناس، ورثت عن جدها نبله وكرمه وفطانته وذكاءه، فهي كانت ولعة بالقراءة والعلم خاصة الصيدلة، إن موت جدها أثر فيها أثرا كبيرا وبدأت تكشف عن حكمة الموت وأسباب الدفاع عنه، كانت الكتب هي كل شاغلها، تسهر على قراءتها، تخطط تحت سطورها وتكتب ملحوظات على هوامشها، ثم تنهمك في سؤال النساء العارفات والاستفسار منهن عن الواصفات القديمة يعالجن بها الأوجاع، وراحت تشتري القدور والفناني والأوعية والأحقاق وتخلط الأعشاب النضر منها والجاف،

تمزج بعضها وتطحنه وتعجنه وتسخن وتبرد وتستقطر، فتأتيها نساء الحي يطلبن نصحها في علاج مرض أو آخر، ورغم الخلاف الشديد والتشاجر الطويل من أمها، [1] فهي تواسي الفقراء والضعفاء ولا ترد سائلة حتى وإن لم يملك إعطاءها مقابل تطبيبها.[2]

زوجت مع سعد وهي كانت في التاسعة عشرة وسعد في العشرين، ورزقا بإبنة إسمها عائشة، ولكن زواجها ما وفق كثيرا، فاختارت العزلة والانفرادية وانهمكت بكتبها ونشاطاتها الطبية، انضم زوجها سعد إلى جماعة المجاهدين في الجبال، وبالأخير تم القبض عليها تحت اتهام ممارسة السحر والشعوذة والتراجع عن العقيدة الكاثوليكية بعد التعميد، وامتلاك الكتب العربية، ثم أحرقت في ميدان باب الرملة أمام الناس، [3] وبموتها انتهى الجزء الأول من الثلاثية.

- **نعيم:** هو كان يعمل في حانوت أبي جعفر بحي الوراقين، كان أمينا وماهرا في العمل وفي علاقة وطيدة مع أهله وسعد، ضل كثيرا في طلب الحب، أحب فتاة يوما ثم تركها ليحب أخرى، وبالأخير تزوج مع مايا ورزق ثلاثة أولاد، بدر وهلال وقمر، عاش طويلا وجال مدنا كثيرة في طلب الرزق والأمن، وفي النهاية عاد إلى حي البيازين وهو كان قد فقد عقله واختل ميزانه ومات فيها بعد موت حسن.
- **حسن:** وهو حفيد أبي جعفر، كان يصغر من سليمة بثلاث سنوات ويعمل في تغليف الكتب مثل جده، تزوج من مريمة ورزقا بخمسة أولاد، أربع بنات وولد، كان همة الوحيد في طوال الرواية هو العيش في سلام وإبعاد الأذى عن أهل بيته، إنه أرسل حفيده الوحيد إلى المدرسة الإرسالية ألا يزج بالصغير وبنفسه في مشكلات قد تزداد

[1].رضوى عاشور: الثلاثية، ص124.
[2].المصدر السابق، ص212.
[3].المصدر السابق،ص245.

تعقدا بما لا تحمد عقباه، ولكنه كان قلقا بنوع التعليم الذي يتلقاه حفيده في المدرسة، فلذلك قرر أن يعلمه بنفسه العربية ويخبره عن التراث العلمي والعربي، نراه في الرواية قد يئس من الويلات المتتالية والأحزان المندفعة، ولجأ إلى شرب الخمر وقضاء الليل مع النساء العاهرات المومسات، إنه عاش طويلا وفقد عقله في آخر عمره حتى مات.

- **سعد:** هو فتى غريب فقير من مالقة، اشتغل في حانوت أبي جعفر مع نعيم، وكان يحبه أبو جعفر حبا شديدا ويراه كما يرى حسن، تزوج سليمة ثم ترك البيت بعد سقوط غرناطة وانضم إلى صفوف المجاهدين، اعتقل وعاش مدة في السجن.
- **مريمة:** وهي زوجة حسن وإبنة أبي إبراهيم، وهي الشخصية الرئيسية للجزء الثاني من الثلاثية، وبإسمها سمي هذا الحزء، وهي إمرأة ذكية فطنة، اشتهرت بين الجيران ونساء الحي بمفاجأتها المدهشة وسرعة الإجابة، أحبتها كل نساء الحي وعاشت طويلا منتظرة للمعجزة الإلهية، وللمدد من دول المسلمين شاكية إلى الله حتى ماتت في طريقها إلى قرطبة مع حفيدها علي.[1]
- **عائشة:** ابنة سليمة وسعد، لا نجد تفاصيلها في الرواية.
- **هشام:** الإبن الأصغر لحسن ومريمة، تزوج من عائشة، وانضم إلى صفوف المجاهدين.
- **علي:** وهي الشخصية الرئيسية للجزء الثالث للرواية، وهو ابن عائشة وهشام، بعد رحيل أبيه وموت أمه عاش مع جده حسن وجدته مريمة، بعد وفاتهما إنه تنقل في مدن كثيرة للعمل وطلب الرزق والأمن إلى أن استقر في قرية الجعفرية، حتى صدر

[1].المصدر السابق، ص340.

الأمر الرسمي بترحيل جميع الموريسيكيين من الأندلس، فهو أيضا منهم، ولكنه في النهاية تغير رأيه واختار البقاء فيها، لأنه رأى الموت في الترحيل لا في البقاء.

تميزت شخصيات رضوى عاشور في الرواية بأنها شخصيات عادية نامية، وقد اعتمدت على الحجم الكبير من الشخصيات لمتابعتها الزمن الطويل للقصة، واستطاع القاري أن يعيش أحداث السقوط وكأنه في قلب الحدث، قسمت الكاتبة شخصياتها ما بين شخصية لم تستطع العيش في الظروف الجديدة والأوضاع الراهنة أو الآتية، فأعلنت رفضها التام كشخصية أبي جعفر الوراق، الذي مات متأثرا بحادثة إحراق الكتب، وشخصية أخرى رفضت الوضع الجديد ولجأت إلى العزلة وانكفأت على نفسها كشخصية سليمة التي قاومت الانغماس في الزمن التاريخي الغربي، ورفضت حضور التعميد والتردد في الكنيسة وعاشت بشكل فردي منهكمة في كتب العلم والحكمة والصيدلة وعلى مداوة المرضى، وشخصية أخرى تمردت على السلطة القشتالية وحاولت استرجاع مجد العرب وشرفهم وانضمت إلى صفوف المجاهدين في المناطق الجبلية والسواحلية، كشخصية سعد وهشام، وأخرى آثرت الاندماج مع الزمن الجديد وتمثلته تماما في أفكارها وسلوكها ولباسها، كشخصية خوسية وأبي منصور، وأخرى سلكت مسلكين، التظاهر بالحضارة العربية في داخل البيت وإخفاءها في خارجه كشخصية حسن وعائلته الذين واجبوا على حضور قداس الأحد والتحدث بالقشتالية، حتى لا يثير الشبهة حولهم مؤثرا اسلامه ومعتقدا بأنه يحمي أسرته من شرور الزمن الجديد.[1]

الزمان والمكان في الرواية:

[1].خلود إبراهيم عبد الله جراد: تطور البناء الدرامي التاريخي في روايات رضوى عاشور، رسالة الماجستر، جامعة الشروق الأوسط2014-2013م، ص 25.

إن المكان الذي تدور حوله قصة الرواية هو غرناطة بعامة وحي البيازين وعين الدمع والجعفرية بخاصة، وله خصوصية طاغية، كما تقول خلود إبراهيم عبد الله "للمكان في هذه الرواية خصوصية طاغية، فغرناطة في زمن سقوط الحكم العربي تعتبر بطلة الحكاية بلا منازع، فما زال جرح سقوطها وما لقيه العرب من إذلال ومهانة بفعل محاكم التفتيش لا تقوي النفوس تقبله على مر الزمان، وما زال محفورا في الذاكرة".[1]

وقد أظهرت الكاتبة براعتها في تشخيص مكانها الروائي وتوضيح قسماته وجعله مرئيا ومحسوسا ومسموعا ومجسدا ومجسما، والهدف من هذا التجسيد والتشخيص للأماكن ونقش التفاصيل الدقيقة هو تحسيس سبك المكان للرواية وبعث الحياة في ذهن القاري ليصل إلى الاحساس الذي تريده الكاتبة،[2] أي غرس الألم بحجمه واسترجاع تاريخ الحزن والذل والهوان بتمامه.

الرواية زاخرة بهذا النوع من الأمثلة التي توضح هذا التجسيد اللفظي للأمكنة كما ورد على لسان الحاج دبيحو العطار في رحلة الحج في وصفه للأماكن التي زارها وخاصة الأماكن المقدسة، وكذلك وصفت الكاتبة رسوم الزواج وشوارع غرناطة وأسواقها وحدائقها وبستانها وأنهارها وبيوتها بكل التفاصيل، حتى جاءت حروفها تعبق بطيب الياسمين والنارنج الغرناطي والمشمش المغناج والرمان الكتوم وللوز والكستاء والسرو والنخيل على جانبي الطرقات، وتشم روائح الفطائر المقلية في زيت الزيتون، وترى الكسكي المسكوب على أواني الخزف المزين بأشهى اللحوم، وتسمع همسات النساء في البيوت وأحاديث الرجال في الحمامات، بل وتضحك مع كركرة المياه المقبلة من قمم الجبال على الوديان المنحدرة، ورغم كل الألم تخال شمس الضحى الذهبية منعكسة بغرور على نهر شنبل، وتمتد ملقية ظلالها

[1].نفس المصدر، ص110.
[2].الرواية والتاريخ، ص258-257.

على هيبة قصر الحمراء الشامخ رغم الانكسار، تقول خلود إبراهيم: "تجد أن عناصر المكان في الرواية تحتكم إلى منطق استقصائي، ينتقل عبر العام والخاص، والرواية تنقل القارئ من الأحجام الكبيرة إلى الصغيرة ثم العكس، وتسلط الضوء على الأمكنة تسليطا دقيقا، بحيث تعمل الكاتبة على تسليط عدستها على الشئ الصغير لتلتقطه وتلتقط معه دلالات جانبية، يعمل السياق على مراكمتها لتساعدها على متابعة تقديم رؤيتها إلى النهاية".[1]

أما الزمن في الرواية هو الزمن الممتد من سقوط غرناطة آخر المماليك الإسلامية في الأندلس إلى ترحيل الموريسيكيين المتنصرين الجديد منها، الذي يحتوي على نحو مائة عام وعشرين عاما، وهو زمن طويل غطتها الرواية، وسلكت الكاتبة الأسلوب التقليدي في تناول هذا البعد الزمني في روايتها مبتعدة عن النظرة الحديثة التي تفصح مجالا للكاتب لتطبيق الشعار اللاتسلسل واللامنطق واللاترابط.[2]

فسارت الأحداث في الرواية بتسلسل زمني منطقي مترابط تماما مع الحرص على تحري المصداقية التاريخية ويصاحب التسلسل الزمني تطورا على مستوى الحدث الدرامي المرافق حركة الشخوص الذين عايشوا الأحداث التاريخية تلك.[3]

فصورت الكاتبة الوقائع اليومية وجزئيات الحياة المعتادة والأحداث والقضايا السياسية والاجتماعية والثقافية الاقتصادية التي حدثت خلال هذا الزمن الطويل بسلاسة ويسر مستخدمة تقنيات مختلفة كالاسترجاع والاستبقات والتذكر والتزامن والوقف لتحقيق هدفها وعرض رؤاها، ثم الحقت ذلك الزمن الغابر بالزمن الحاضر الذي نرى فيه حملة الصهيونيين على فلسطين وحرب أمريكا وحلفاءها على العراق والدول العربية الأخرى.

---

[1].خلود إبراهيم عبد الله جراد: تطور البناء الدرامي التاريخي في روايات رضوى عاشور، رسالة الماجستر، جامعة الشروق الأوسط2014-2013م، ص 25.

[2].نوال أحمد مساعدة: البناء الفني في روايات مؤنس الرزاز، ص42.

[3].جمانة مفيد عبد الله سالم: غرناطة في خمسة نماذج روائية، ص249.

الأسلوب واللغة:

لقد تجاوزت الكاتبة في روايتها الأسلوب التاريخي التقليدي لسرد الأحداث دون ان تتوقف عن السرد لحظة واحدة، وقد ساعدت في ذلك جولتها وقضاءها جزءا مهما من حياتها متنقلة ما بين إسبانيا وبريطانيا وأمريكا، إنها استخدمت تقنية تعدد الرواة واعتمدت على الراوي المحايد للقيام بعملية السرد الروائي التاريخي، الراوي العليم بالأحداث والمشارك فيها بموضوعية، واتكأت على السرد الشفاف والحوار الظاهر، كما استعملت أسلوب التقرير السردي لأفعال القول والحركة والفكر، تقول خلود إبراهيم "استخدمت الكاتبة الأسلوب التقريري السردي لأفعال القول والحركة والفكر، حيث كان أكثر الأساليب المتبعة مما كثف من وجود الأفعال الماضية والمضارعة التي تخللت فقرات الرواية ليشعر القارئ بتتابع الأحداث وتعاقبها". [1] كما نجد ذلك فيما ورد على لسان الحاج العطار في وصف الأماكن المقدسة.[2]

أما الحوار في الرواية فقد تنوعت ألوانه وأشكاله، فانحصرت بين المنولوج والديالوج، الحوار الداخلي والحوار الخارجي، ولكن المنولوج احتل مساحات واسعة في الرواية، وقد استعملت الكاتبة عدة طرق للولوج إلى أجواء المنولوج، ومنها: الدخول مباشرة في أثناء السرد، ومنها: التقديم لمشهد المناجاة بعبارة: حدث نفسه أو قال لنفسه وغير ذلك من الألفاظ الدالة عليه، [3] أما الديالوج فهو أيضا أخذ مساحة ليست قليلة في الرواية نظرا إلى طبيعة الرواية، وهو يتمثل في الرواية الأسلوبين، وهما: الحوار والحوارية، وظهر فيها على شكل مقاطع طويلة آخذا شكل حوار أحادي الاتجاه في بعض المشاهد كما في الحوار الذي دار

[1].خلود إبراهيم عبد الله جراد: تطور البناء الدرامي التاريخي في روايات رضوى عاشور، رسالة الماجستر، جامعة الشروق الأوسط2014-2013م، ص 25.
[2].رضوى عاشور: الثلاثية، ص470.
[3].جمانة مفيد عبد الله سالم: غرناطة في خمسة نماذج روائية، ص246.

بين سليمة ومحاكم التفتيش،[1] أو كما حدث بين سعد وحسن حول جواز الاظهار بالنصرانية وإضمار الإسلام في النفس.[2]

وقد لجأت الكاتبة إلى الرمز والإيحاء، كما أنها رمزت بتلك المرأة العارية التي انحدرت إلى أبي جعفر بالأندلس التي فقدت مجدها وشرفها حتى صارت كأنها عارية، كما أنها رمزت بكلمة الترحيل إلى ضياع المسلمين مجدهم وكرامتهم وحضارتهم وتقافتهم تماما ثم هجرتهم من البلاد.

أما لغة الرواية فهي تتميز بسلاسة وروعة وبهاء وشفافية وغنية بالمفردات والتراكيب الرائعة والتفاصيل الجميلة والتصور الفني الجميل حتى تتخيل نفسك واحدا من سكان غرناطة تشعر بآلامهم وتفرح بفرحهم وتمارس حياتهم اليومية وتتجول في الأحياء القديمة كالبيازين وعين الدمع والصنادقية، وتتمشى في الطرقات المرصوفة على الجانبين بأشجار اللوز والكستناء والزيتون والنخيل والأسواق المفعمة بالحياة المليئة بالعطور والبضائع الثمينة والحمامات العربية التي تشبه أرقى المجتمعات الموجودة حينئذاك وغيرها من الأماكن.

استخدمت الكاتبة لغة تناسب موضوع الرواية، فأعطت القارئ إحساسا يتخلق الفكرة تدريجيا أثناء القراءة للمشاهد التي تتمثلها الشخوص في المواقف المختلفة تابعا ذلك الإحساس من قوة اللغة وفورتها.[3]

يقول الكاتب إبراهيم خليل في صدد اللغة في روايات رضوى عاشور: إن روايات الكاتبة تتسم باقترابها من لغة النص التاريخي التي تعتمد ظاهرة تداخل النصوص، وأن لغتها تحتوي على تراكيب وتعبيرات قديمة وكأن الكاتبة نفسها آية من الماضي، وهي تلونها حسب

[1].رضوى عاشور: الثلاثية، ص233.
[2].المصدر السابق، ص144-143.
[3].خلود إبراهيم عبد الله جراد: تطور البناء الدرامي التاريخي في روايات رضوى عاشور، رسالة الماجستر، جامعة الشروق الأوسط2014-2013م، ص 25.

الموضوع أو الشخصية التي تدور حولها القصة، وذلك نظرا إلى شغفها بلون معين من ألوان الفن والتعبير".[1]

وتقول خلود إبراهيم: "وظفت الكاتبة في الثلاثية لغة قادرة على إثارة مخيلة القارئ، لغة قادرة على توظيف الروابط والاحالات الزمنية والمكانية، وكذلك لغة قادرة على إعطاء صورة صادقة، التجدد الأدءا اللغوي تجديدا يشمل جوانب الحياة اللغوية كافة تتغلغل في جل تفاصيل الحدة اليومية لشخص الرواية معبرة عن أدق التفاصيل متعمدة على الحذف والإضمار والإيماء بما لا يمكن التصريح به، فلجأت إلى التلميح كما في مشهد علي مع المرأة صاحبة البستان".[2]

جمعت الكاتبة بين البساطة العادية المتداولة بين الناس واللغة العميقة الفلسفية التي تنم عن إدراك عميق، وذلك عن طريق المزاوجة بين دلالات الكلمات والتلاعب بمواقع الألفاظ في التراكيب الواحدة، وكذلك وظفت بغزارة لغة الأسئلة وأسلوب الاستفهام لتعكس العمق النفسي للشخوص المتهدم بتوالي الهزائم والنهب المتواصل لأشياء الذات وأزمنتها وأماكنها، كما استخدمت عدة أشكال من اللغة، ومنها: لغة المناداة ولغة المراسيم ولغة المحاكم ولغة العقود ولغة الفتوى ولغة حيى بن يقظان ولغة الرسالة ولغة الأحلام، وكذلك تتميز لغة الكاتبة بالشعرية والإيقاعية والإيحائية والغنائية، التي هي أهم صفات الشعر، حتى غدت لغة الرواية منقمة متألقة جميلة مجسدة ما يحصل بالواقع، مليئة بالتوتر وكاشفة عن نفسية أبطالها محتفية بذلك كامل أبعاد البناء التاريخي.[3]

---

[1].إبراهيم خليل: بنية النص الروائي، ص235.

[2]. خلود إبراهيم عبد الله جراد: تطور البناء الدرامي التاريخي في روايات رضوى عاشور، رسالة الماجستر، جامعة الشروق الأوسط2014-2013م، ص 127. نقلا عن بنية النص الروائي لإبراهيم خليل.

[3].المرجع السابق، ص128-127.

ومن تلك الأمثلة "التلال في الصيف تقيم أعراسها، وتنشر على الملأ أخضرها العميم، تدغدغه زهور البر بعطورها، وألوانها وبينها شقائق النسمان تفوقها بهاء فجورا بأحمرها الكياد، صيف غرناطة عروق زيتون تحمل، مشمش مغناج ملمح ويختفي بين خضرة الأوراق ورمان كتوم يجمع حلاوته على مهل قبل أن ينفرط بين أيدي أكليله وتعريشات دوال وأشجار جوز، ولوز، وكستناء تظل الطرقات، وماء دافق ينحدر من قمم الجبال مقبلا على الوديان ضاحكا ومكركرا".[1]

تتسم لغة رضوى عاشور في الرواية بالفصاحة، ولكنها بعض الأحيان تميل إلى استخدام اللغة العامية المصرية، وذلك لتصوير الواقعية الغرناطية التاريخية، ولكنها جاءت بقليل جدا.

[1].رضوى عاشور: الثلاثية، ص44.

الفصل الثاني

آراء الكتاب حول رواية "ثلاثية غرناطة"

كما بينت سابقا أن رواية "ثلاثية غرناطة" رواية عربية فنية عالية قدمت مرحلة خطيرة لتاريخ المسلمين في الأندلس كمادة لها وعرضتها في صورة شائكة جميلة ولغة أدبية رائعة وأسلوب بليغ حتى جلبت آلاف من القراء إلى قرائتها وتعمقها في فلسفة الحياة والمد والجزر والإزدهار والانكسار، وإحساس تلك المرارة والقساوة والأيام الحرجة المؤلمة التي عاش فيها المسلمون الغرناطيون في قبيل سقوط الدولة الإسلامية وبعد سقوطها من الأندلس تماما، وتتقلنا إلى نهاية القرن السادس عشر وبداية السابع عشر الميلادي بكل قوة لنتجول في جبال غرناطة ووديها وحدائقها وأشجارها المثمرة بأنواع مختلفة من الأثمار، وأسواقها من البضائع الثمينة، وشوارعها المرصوفة على الجانبين باللوز والتين والزيتون وفي بيوتها بين همسات النساء والشجار بينها، كما حظيت الرواية بانتقادات ايجابية وسلبية من قبل القراء النابهين والأدباء البارزين وهي تروة لنا وللأدب العربي ولأنها تعيننا لفهم الحكاية والموضوع واللغة والأسلوب الذي مارسته وتجدد التيار العام للأدب العربي الحديث والرواية العربية الحديثة المعاصرة. فهنا نقدم الآراء من بعض الأدباء والكتاب والقراء النابهين بشيئ من الإيجاز.

- **خلود ابراهيم عبد الله جراد**

تقول خلود ابراهيم عبد الله جراد في رسالتها التي قدمت بها إلى كلية الآداب والعلوم في جامعة الشرق الأوسط استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجيستير في اللغة العربية وآدابها، فسم اللغة العربية وآدابها.

هذا ملخص ماجاءت رواية "ثلاثية غرناطة" هي العمل الثاني للكاتبة رضوى عاشور جاءت حاملة في طيها جميع مقومات الرواية، فهي تعبق بفوح التاريخ ونلحظ أن روحه قد تملثت الرواية بحضور طاغ ومعلنة سطوتها بقوة، فاستندت الكاتبة إلى كل ما دونته كتب التاريخ بدقة متناهية، فما أن يشرع القاري بعملية القراءة حتى يظن أن قدميه قد باتت تطأ أرض غرناطة، وتجول في طرقاتها، وأن روحه قد تزملت بأثواب أندلسية، إنها عرضت الأحداث التي وقعت تحت الحكم القشتالي بالأحداث التي تقع اليوم في العراق والدول الأخرى تحت السيطرة الأجنبية، واتحضرت أحزانا قديمة وأثارت أوجاع حاضرة، وأرادت بذلك من الكتابة عن الحاض لإثبات الاستمرارية ومحاولة فهم الواقع المعيش .

- **جمانة مفيد عبد الله السالم**

يقول جمانة مفيد عب الله سالم في رسالته ""غرناطة فى الرواية دراسة خمسة نماذج روائية" التي قدمهااستكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجيستير في اللغة العربية وآدابها أغسطس 1999م إلى مكية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية.

جاءت رواية "ثلاثية غرناطة" لتحمل رواية فنية انصهرت في بوتقتهاحقائق التاريخ بعناصر المتخيل الموضوعي، لتحكي مأساة العرب الموريسيكيين التي فرضت عليهم الظروف أن يبقوا في الأندلس بعد أن عاشوا لسقوط العربي فيها، وذلك منذ عام 1992م فترصد أحوال حياتهم، وحياة احفادهم من بعدهم، تلك التي امتدت حتى عام 1609م وهو

العام الذي شهد طرد العرب منها بعد صدور قرار الإسبان بهذا الشأن، فإن الرواية تقترح العودة إلى الجذور لتلمس الصراع الحضاري طريا.

- **أحمد دياب**

في رسالته "نظرة في رواية" في رواية "ثلاثية غرناطة"، يقول أحمد ديات على منوال ماركيز في "مائة عام من العزلة" ونجيب محفوظ في "الحرافيش" ورضوى عاشور تقدمت لنا رحلة مع عائلة أبي جعفر المنصور المنصوري في الأندلس المفقود. رحلة الهم، والغم، والحزن والأسى، فمهمة الرواية هي دفعها لكم للبحث عن تلك الحقبة المجهولة وتعرض لك ملخصا لحياتهم الممتدة عن عاداتهم ومعاناتهم وعن تعاملاتهم وحرفهم عن كل شيئ جميل في تلك البلاد التي آمل أن يقود لها مجددا، ختاما إذا لم تكن قرأت هذه الرواية حتى الآن فأعلم أن الكثير من المتعة تفقدها إذا لم تقرأها ضمن يبحث عن هموم التاريخ وأهواله فليقرأ تلك اللوحة الحزينة في تاريخنا المنسي .

- **عبد السلام القطيط**

يقوم عبد السلام القطيط في محاضرته تحت عنوان " الأبعاد الرمزية في " ثلاثية غرناطة" ثلاثية غرناطة رواية جائزة أحسن كتاب في مجال الرواية لعام 1994م من معرض القاهرة الدولي للكتاب، وكذلك على الجائزة الأولى للمعرض الأول لكتاب المرأة العربية في نوفمبر 1995م غرناطة .. مريمة... الرحيل.

هذه الرواية تنشر بفصولها الثلاثة الحياة اليومية للمسلمين في الأندلس قبيل سقوط غرناطة بقليل وتحكي أحداثها أحوالهم في آخرمعاقلهم إلى أن تم إفصاءهمم بالكامل عن الأندلس وذلك عبر التمعن المتقن في شخصيات الروائية الرئيسية في تصوير الحياة في تللك الفترة المهمة من تاريخ المسلمين .

كما يتحدث علي الراعي عن الرواية "تجعل حقائق التاريخ تنتفض أمامنا حارة دافقة"، هي رواية جميلة العبارة، جانحة الخيال، مزدانة بالألوان، شاذية بالروائح، وممتلئات بالحركات والنشاطات، وإنها رواية تجذب القارئ وتعبر به حدود الزمان والمكان، وهي الرواية الأولى من نوعها التي حاولت تجسيد هذه الفترة التاريخية شديدة الأهمية من تاريخ المسلمين في الأندلس على هيئة رواية أدبية متكاملة وليس على نحو سرد تاريخي مطبوع. إن ثلاثية غرناطة هي بلا شك رواية تستحق عناء قراءتها والتأمل فيها.. بل هي رواية لاتتعبك أثناء القراءة، إنما تفرض عليك التعب والعناء فقط إذا فكرت أن تتركها قبل أن تنتهي من قراءتها .

- **أماني نور الشمس**

إن أماني نور الشمس يقول "إن كانت هنا رواية عاطفية تتحدث عن تاريخ قرية لمدة مائة عام من العزلة، فرواية "ثلاثية غرناطة" للكابة رضوى عاشور" وهي تقدم لنا تاريخ مائة عام من التهجير والذل والانكسار الذي عاشه أهالي غرناطة والمدن المجاورة لها بعد سقوط غرناطة على أيدي القشتاليين وتنازل حاكمها الخائن عن الحكم، فإن الرواية توجع قلوبنا عندما نقلب صفحاتها تنقل لنا شيئا كما كان وجد في ذلك الزمن المرير، ومائة عام وأنت تحيا مع شخصيات الرواية تعيش وتموت وهي في حسرتها. وإن الرواية تروي لنا التاريخ بدمع منهمر تستحق القراءة، وتستحق التأمل، وتستحق أن تقرأها لتعرف قيمة بلادك العريقة التي ضاقت ومازالت تضيع بسبب ظلم حكامها .

- **محمود أمين العالم**

يقول مفكر يساري و واحد أقطاب حركة اليسار في مصر محمود أمين العالم عن رواية "ثلاثية غرناطة" إنها "إضافة قيمة إلى الرواية العربية ."

- **لطيفة الزيات**

لطيفة الزيات هي روائية ، وأديبية وناقدة واهتمت بشؤون المرأة وقضاياها، تقول عن رواية "ثلاثية غرناطة" إن "اللغة في غرناطة هي الذاكرة. ومن هنا هذا الاحتفاء الكبير بجلالة اللغة ورصانتها وايقاعها وشاعريتها ومن هنا هذا المعجم الواسع، ومتعدد المقاصد في السرد الوصف معا "

- **جابر عصفور**

يحكي كاتب ومفكر مصري ورئيس المجلس القومي للترجمة عن رواية رضوى عاشور أن "غرناطة رواية المقموعين، حيث يصبح مجرد البقاء على قيد الحياة بطولة في عالم عدواني يقمع تاريخا كاملا "

- **صلاح فضل**

كان الدكتور صلاح فضل ناقدا بصيرا بفنون الأدب العربي وكان يتميز بلغته الفصيحة الرشيقة ويقول عن ثلاثية غرناطة: "عندما تترك (الكاتبة) المجال لخيالها تكتب أدبا حقيقيا لم يخطه قلم من قبل ."

- **اعتدال عثمان**

كانت اعتدال عثمان ناقدة وكاتبة قصة مصرية قصيرة قالت عنها "توغل في الزمان لتنتمي إلى المكان، الآن هنا، تطرح سؤال الحاضر العربي على التاريخ ."

- **صبري حافظ**

كان الدكتور صبري حافظ استاذ اللغة العربية المعاصرة والأدب المقارن في جامعة لندن يقول: "تدخل بكتابة المرأة إلى مجال الرواية التاريخية ثلاثية ضافية، بعد أن ظلت ثلاثية نجيب محفوظ عملا فريدا في هذا المضمار لسنوات طويلة ."

- **فريدة النقاش**

فريدة النقاش كاتبة صحفية ومعارض يسارية مصرية. وأول امرأة مصرية أصبحت رئيسة تحرير لجريدة الأهالي وهي تقول عن الرواية "حين ينتهي المرء من قراءة غرناطة لابد أن تعتريه قشعريرة في الروح".

الخاتمة

بعد جهود متأنية ومساعى متواصلة قد وصلنا إلى نهاية المطاف من الرسالة التي بحثنا فيها عن حياة الأديبة المصرية الكبيرة والروائية العملاقة المتخصصة في كتابة الرواية التاريخية رضوى عاشور التي ولدت في مدينة القاهرة من صباح يوم الأحد 26 مايو عام 1946م الموافق 24 جمادى الآخرة عام 1356هـ وتلقيت العلوم الإبتدائية في المدارس المختلفة وانتقلت بعدها إلى المدرسة الثانوية واكتملت فيها الدراسة، وبعد الفراغ من المرحلة الثانوية إنها التحقت بجامعة القاهرة حيث درست الإنجليزية وحصلت على شهادة الليسانس والماجيستير وعينت أستاذة في جامعة عين شمس، ثم رحلت إلى أمريكا لدراسة الدكتوراة عام 1973م ومكثت بها عامين والتحقت بجامعة ماساتشوستس بأمهرست وبدأت الدراسة حول الأدب الأفريقي الأمريكي وتاريخ حضارة القارة وظلت نشيطة في المشاغل السياسية والثقافية الأخرى كما أنها أسست اللجنة المسماة بـ "لجنة الدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني" مع زملاءها السوريين واللبنانيين والفلسطينيين، حتى قدمت رسالتها تحت عنوان "البحث عن نظرية للآداب – دراسة لكتابات النقدية الأفرو–أمريكية" وعادت البلد في أغسطس عام 1975م.

وعلمنا أن العوامل الكثيرة أثرت في حياة رضوى عاشور العلمية والأدبية و ثقافاتها الواسعة ورحلاتها الكثيرة ولقاءها مع الشخصيات العلمية والأدبية وكذلك الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية السائدة على البلد خاصة وعلى العالم العربي عامة قد لعبت دورها في تنمية شخصية رضوى عاشور كشخصية مقاومية حتى إنها ثارت على الوضع السائد و نزلت ميدان التحرير عام 1972م وشكلت مع مجموعة من الكتاب والصحافيين والفنانين لجنة وطنية ونرى شخصيتها النضالية في أعمالها الإبداعية التي تركتها بكم هائل

في شكل القصة والرواية والقصة القصيرة والدراسة الأدبية، وهي تتميز بالتحرر الوطني والإنساني والمقاومة ضد العدوان والقهر والكبت السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي، ومن أعمالها المشهورة هي الرحلة و حجر دافئ وخديجة وسوسن و رأيت الخل وسراج وثلاثية غرناطة وأطياف وتقارير السيدة راء وقطعة من أوروبا و الطنطورية والطريق إلى القيمة الأخرى وجبران وبليك والتابع ينهض وغيرها.

إنها تخصصت في كتابة الرواية التاريخية، ومن أبرز رواياتها التاريخية "ثلاثية غرناطة" احتلت مكانة مرموقة و شهرة عالمية لمادتها التاريخية ولغتها المنفردة و أسلوبها الفني، إن هذه الرواية تستعرض حياة المسلمين ومعاناتهم وأيامهم المريرة بعد سقوط غرناطة عام 1492م إلى عام 1609م حينما أصدر الحكم بترحيل المسلمين من الأندلس وإبعادهم منها تماما مرورا بكثير من الويلات والنكبات والنكسات والحصار السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي وعلمنا كيف جاهد الشعب الأندلسي والمسلم للحفاظ على الهوية والثقافة الإسلامية والعربية تحت ظل الحكم النصراني حتى أجبر الحاكم الجديد المسلمين على التنصير أو العيش تحت الخناق ومنع استخدام اللغة العربية والألقاب العربية والملابس والحلى العربية .

ثم ألقينا الضوء في الرسالة على القضايا الاجتماعية والسياسية التي تناولتها الرواية وركزنا القول خلال هذه الدراسة على الجانب الديني والثقافي والأخلاقي للمجتمع الأندلسي الذي ظهر أمامنا خلال منافذ أحداث الرواية، وكان متميزا بالإمساك بعروة الدين وممارسة العقيدة الإسلامية والتفكير بالفكر الإسلامي والتثقف بالثقافة العربية والحفاظ عليها بأي قيمة حتى في أيام المحنة والفتنة والبلاء ولكن هذا الطابع الديني خفي شأنه مع مرور الأيام حتى نرى كثير من العادات السيئة منها شرب الخمر والزنا وغيرذلك.

أما الرواية من حيث الفن فهي تتميز بقصتها المنفردة وحكايتها قصة عائلة غرناطية وتناولها التفاصيل اليومية والحياة العادية لهذه العائلة الممتدة إلى خمسة أجيال والأشخاص المحيطين بها والأحداث المتوالية التي تمر بها من عمل ووظيفة و زواج وولادة وسجن واغتراب ونضال، كما أنها تتميز لتنوع شخصيتها وتعددها، إن هذه الشخصيات ليست كثلث الشخصيات التى اعتدنا بروايتها في الروايات العربية الأخرى، بل هي شخصيات عادية عاشت حياة الذل والهوان ومرارة الاحتلال والتعذيب والتهجير والترحيل وقساوة الظلم والعدوان والاضطهاد طوال القرن. أما مكانة الرواية وهو غرناطة بعامة وحي البيازين وعين الدمع والجعفرية بخاصة والزمان يمتد من سقوط غرناطة إلى هجرة المسلمين من الاندلس، ولقد تجاوزت الكاتبة في روايتها الأسلوب التاريخي التقليدي لسرد الأحداث دون أن تتوقف عن السرد لحظة واحدة، وقد ساعدت في ذلك جولتها وقضاءها جزءا مهما من حياتها متنقلة مابين إسبانيا وبريطانيا وأمريكا، لغة الرواية تتسم بسلاسة وروعة وبهاء وشفافية وغنية بالمفردات والتراكيب الرائعة والتفاصيل الجميلة والتصورالفني الجميل حتى تتخيل نفسك واحدا من سكان غرناطة تشعر بآلامهم وتفرح بفرحهم وتمارس حياتهم اليومية وتتجول في الأحياء القديمة.

نظرا إلى قصة الرواية المنفردة وأسلوبها الأنيق الرائع ولغتها الفصحى الجميلة ومكانتها الفنية والأدبية قد أبدى كثير من الأدباء والباحثين آراءهم حول هذه الرواية وقالوا عنها قول حسن:"ومن أمثلة لهذه الأقوال قول".

وأخيرا أدعو الله أن يجعل هذا العمل المتواضع في خدمة اللغة العربية والأدب ويهدينا إلى سواء السبيل ويغفر لنا ولوالدينا وأسرتنا وإخواننا ولجميع المسلمين.

المصادر والمراجع

1. رضوى عاشور، ثلاثية غرناطة، دار الشروق، القاهرة، ط3، 2001م.
2. رضوى عاشور، أطياف، دار الشروق، القاهرة ، ط3، 2006م.
3. رضوي عاشور ، قطعة من أوروبا،الدار البيضاء – المغرب المركز الثقافي العربي، ط 1، 2003م.
4. رضوي عاشور، الرحلة، بيروت، دار الأدب، 1983م.
5. رضوى عاشور، سراج، دارالشروق ، القاهرة، 2008م.
6. رضوى عاشور، الطنطورية، دار الشروق، القاهرة ،2012م.
7. جراد، خلود إبراهيم عبدالله، تطور البناء الدرامي التاريخي في روايات رضوى عاشور، 2013-2014م.
8. السرجاني، راغب، فصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، مؤسسة اقرأ للنشروالتوزيع والترجمة، 2010م.
9. محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17، الدار البيضاء.
10. السعيد، سعيد بن فايز الجذور التاريخية للهجرات العربية إلى المغرب الأقصى، الرياض، المملكة العربية السعودية 2004م.
11. مصطفى قاسم، الدين والدم إبادة شعب الأندلس، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة 2013م.
12. وفاء محمد سحاب، تاريخ اختطاط العرب المسلمين للمدن في الأندلس،مجلة كلية الآداب / العدد 101.

13. الدكتور عبد القادر بوبايه، تاريخ الأندلس لمؤلف مجهول، دار الكتب العلمية، لبنان ط1، 2007م.
14. جمانة مفيد عبدالله السالم، غرناطة في الرواية دراسة في خمسة نماذج روائية، الجامعة الأردنية،1999م.
15. محمد على مكي، فتح الأندلس جرجي زيدان، دار الهلال، 1998م.
16. الكزبري، سلمى الحفار، في ظلال الأندلس، دارالبعث،سوريا.
17. فيصل دراج، الرواية وتأويل التاريخ، المركز الثقافي العربي.
18. محمد احمد القضاة: التشكيل الروائي عند نجيب محفوظ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
19. حسين مؤنس: فجر الأندلس.
20. البكري، أبو عبد الله عبد العزيز، جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك.
21. عبد الواحد ذنون طه ، الفتح والإستقرار العربي والإسلامي في شمال أفريقيا والأندلس.
22. رضا هادي عباس، الأندلس رحلة في التاريخ والحضارة.
23. نوال أحمد مساعدة، البناء الفني في روايات مؤنس الرزاز.

المراجع الإلكترونية

1. https://ahmdiab.wordpress.com/2014/09/04.
2. http://www.elgatit.org/?p=407.

Al-Qadaya al-Ijtimayeyah was -Siyasiyah fi "Tholathiyyti Garnatah"le Radwa Ashour

(Social and Political issues in Granada Trilogy by Radwa Ashour)

Dissertation submitted to Jawaharlal Nehru University
in partial fulfillment of the requirements
for the award of degree of
MASTER OF PHILOSOPHY

by
Md Arshad Ali

Supervisor
Dr. Md. Qutbuddun

Centre for Arabic & African Studies
School of Language, Literature & Culture Studies
Jawaharlal Nehru University
New Delhi-2016